

حرف العين

٣٨٩ - عبد الله أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين السلطان الأعظم إسماعيل
ابن أمير المؤمنين الشريف بن علي الحسنى العلوى الينبوعى
السجلماسى.

مولده: ولد بمهد سلفه تافيلالت بقصبة الفرخ قرب الدار البيضاء من وادى
يفلى، فى منتصف ذى الحجة عام واحد وعشرين ومائة وألف، أمه الحرة العاملة
العاملة خنائة بنت الشيخ بكار المغفري مارة الترجمة.

صفته: أبيض مشرب بحمرة، مليح الوجه، قصير القامة، خفيف اللحية
جدا، مفلج الأسنان، بخذه الأيسر شامة، طويل اليدين والأصابع، إذا تكلم تحرك
شارباه الطويلان، صغير الرجلين دقيق القدمين، إذا ركب حسبته طوالا، وإذا
مشى حسبته لخفة مشيته شابا صغيرا، مهاب لا يكاد أحد ييدؤه بالكلام، كذا
وصفه من عاصره.

حاله: قال فى الشجرة الذكية: كان محبا لأهل البيت ذنبهم عنده مغفور،
وعيينهم مستور، يتجاوز عن المسىء منهم ويجازى المحسن ويواسى الجميع
بالأموال، ويعفو ويصفح فى سائر الأحوال، قال: وكان معروفا بالسماحة يعطى
ولا يبالى وخصوصاً للأشراف. هـ.

٣٨٩ - من مصادر ترجمته: نشر المثنى فى موسوعة أعلام المغرب ٦/ ٢١٩٧.

وقال فى الدرر البهية: كان رحمه الله فى العلوم آية باهرة، وعلى أعدائه صاعقة قاهرة، فكم أحيا من علوم، وأباد من ظلوم، وجدد من رسوم، وجدلت سيوفه من بذى غشوم، وكم ضم من حشود، وقهر من حشود، تصدى للخلافة فى معظم أيام الفتنة، وقد زاحمه إخوته فى كل بلدة، ولم يزل يقارع الأهوال، مع معاركة الأحوال، إلى أن تمحضت له ولبنيه من بعده، وناداه منادى يمنه وسعده هـ.

وقال أبو عبد الله الضعيف: كان ذا رأى وحزم وإقدام، أيامه^(١) أيام دعة ورخاء، وأمن وبهجة حسنة، مستبداً برأيه دون وزرائه، قاهراً فى سلطانه إذا أعطى أغنى، وإذا صال أفنى، ذا فضل وكرم وعلو همة، وافيا بالعهود، شجاعاً يباشر الحروب بنفسه، دوخ المغرب بأسره، إلا أنه مسلط على العتاة والطغاة والظلمة، سفاكاً لدمائهم، رفيقاً بالضعفاء والمساكين واليتامى هـ.

وقال فى الشجرة الزكية: فلما تمكن، قتل من أهل فاس ثلاثمائة، ومن العبيد أربعمائة فى يوم واحد، وبقتلهم كانت له قوة عظيمة فى المملكة هـ.

وقال غيره شديد الغضب، ذا بطش غير متوقف فى الدماء ولا واضع فى موضع السيف^(٢) الندى هـ.

قلت: ومن حكم ذى القرنين الإسكندر الملك البعيد الهمة (نعم العون على إصلاح القلوب الموغرة الترغيب بالأموال وأصلح منه الترهيب وقت الحاجة إليه) وكأن المترجم بهذا كان ينظر فى سياسته وفساد الرعية أسرف فى القتل وتجاوز الحد، فكان ما كان مما سيتلى على المطالع.

(١) فى هامش المطبوع: «لعله يعنى الأيام التى لم يكن له فيها منازع والتى لم يلزم فيها قصره».

(٢) فى هامش المطبوع: «سيأتى فى قتل أهل تطاوين لعاملهم خلافه».

وقال فى نشر المثانى: هو الواحد فى العز والمقام، الذى اختاره الله
لتصريف أمور الأنام، كان ممن عمرت به الأرضون فأحيا أنجاده وأغوارها، وسعد
به أهل العز من كل فريق، وتمهدت به السبل من كل فج عميق، وشقت هيئته
المشارك والمغارب، ونال الضعفاء بعزمه ما تمنوه من الثارب، وعمر به سوق العلم
بعد دروسه، وضحك به وجه الزمان لأهله بعد عبوسه، ولله در من قال فى
مديحه:

كفأك افتخارا أن عزك ظاهر	وجودك منسى به جود حاتم
وكون سجايك التى فاح عرفها	سجايك الملوك الشم أولى المكارم
لعمرى لقد ألفت إليك زمامها	سروج العلا إذ كنت أحزم حازم
وأغناك رب الناس عن جمع عسكر	برأى مصيب للعساكر هازم
ونفس علا فوق السماكين قدرها	وعقل غنى عن هداية عالم
فأمنتنا من كل طار وطارق	وحصنتنا من كل داه وداهم

قال أبو القاسم الزينى فى تواريخه ما زبدته مع مزيد تنقيح وإيضاح: بويح
له بالإمامة العظمى بمكناس بعد وفاة صنوه أبى العباس أحمد الذهبى سابق
الترجمة، أوائل شعبان عام واحد وأربعين ومائة وألف كما هو ظاهر نصوصهم،
باتفاق من أعيان الديوان، من عبيد وودايا، وطير الإعلام لإخوانهم جيرانهم أهل
فاس وبالغوا فى حصنهم على الموافقة على ما ذكر والتسارع لبيعة المترجم، وهو
يومئذ بسجلماسة، ووجهوا إليه جريدة من الخيل لإعلامه باجتماع الكلمة على
بيعته، والإتيان به، ولما وصل الكتاب المشار إليه لأهل فاس تلقوه بكل ارتياح
وانشراح، وجمعوا أمرهم وشركاءهم على قراءته على منبر جامع القرويين، وبإثر

قراءته أعلنوا بنصره، ولم يتوقف أحد ممن حضر القراءة ولا من غيرهم فى بيعته بشرط تعجيل حضوره كذا قال الزيانى ومن تبعه .

والذى فى الدر المنتخب المستحسن نقلا عن العلامة المؤرخ ابن إبراهيم الدكالى: أنه فى خامس شعبان المذكور قدم من مكناس لفاس جماعة من العبيد والوزراء والكتاب للمشورة والمفاوضة فيمن يتولى أمر المسلمين، من إخوان السلطان المتوفى، فاتفق رأيهم على المترجم لكن أهل مكناس أعلنوا بنصره حالا، وتأخرت بيعة أهل فاس إلى يوم الخميس تاسع الشهر، وزاد فى الدر المنتخب نقلا عن بعض الأعلام أن المترجم لما بلغه اجتماع الكلمة عليه امتنع من الإجابة لذلك، ولم يزل متماديا على امتناعه إلى أن دخل عام اثنين وأربعين فاستخار الله ونهض من تافيلالت أواخر محرم الحرام ووصل لفاس فى خامس صفر .

ثم حكى أقوالاً أخرى فى تعيين وقت قدومه فاسا، منها: أنه يوم الأربعاء سابع رمضان عام واحد وأربعين ورجح هذا القول واختاره .

ومنها: أن قدومه كان فى مهل رمضان .

ومنها: أنه فى سابع عشرى شعبان وكان نزوله عند وصوله إلى فاس بالمحل المعروف إلى اليوم بظهر المهراس بظاهر فاس .

وبمجرد تخييمه به هرع الأشراف والعلماء والأعيان لاستقبال جنابه وتقديم مراسم التهانى لجلالته، فقابلهم بكل تجلة وإكبار، وأكرم وفادتهم وأوعدهم بالدخول من غده لزيارة الضريح الإدريسى فرجعوا مبتهجين، وبالثناء على شمائله لهجين، وما كان الغد حتى أخذوا زيتتهم وحملوا ألويتهم وأسلحتهم وخرجوا لمخيمه طبق الوعد الذى كان بينهم وبينه، وبمجرد وصولهم ركب المترجم فرسه

وتوجه معهم فى موكبه الحفى الحافل وحاشيته الكريمة، وساروا إلى أن دخلوا على باب الفتوح أحد أبواب مدينة فاس الإدريسية، وكان اختيارهم للدخول على ذلك الباب تيمنا وتفاؤلا بما أضيف إليه.

ثم إن بعض سماسرة الفتن الموقدين لنيرانها من أهل فاس أولاد ابن يوسف رام اغتنام الفرصة بالإيقاع بحمدون الروسى غيلة، حيث إنه كان قتل أباهم، فشرع الروسى بذلك وتنحى عن الموكب، وقيل سبوه والسلطان يسمع واقتفى لأثره فانفلت منهم، ولحق بالمرجم، وأخبره بالواقع وهو إذ ذاك على قنطرة الرصيف فاغتاط، ورجع على طريق جامع الحوت، وذهب على جزاء ابن عامر، وخرج على باب الحديد، وسار إلى أن دخل دار الملك من المدينة البيضاء فاس الجديد.

وقيل: إن ذلك كان والسلطان بالمحل المعروف بين المدن، وأنه سار على حومة البليدة، وخرج على باب الجيسة، وسار إلى أن بلغ فاسا الجديد، ولم يزر الضريح الإدريسى تحريزا من توقد نيران الفتن على حين غفلة، وذهب القوم فى إعراض المترجم عن الزيارة كل مذهب.

ثم بعد أن أحاطوا علما بالسبب الموجب للتخلف طلع لدار الملك أعيان البلد من أشرف وعلماء ووجهاء بيعتهم، وكان القاضى الأعدل أبو العلاء إدريس ابن المهدي المشاط، هو الذى تولى إنشاءها وكتبها، وقد أوردها بنصها أبو القاسم الزيانى فى البستان مؤرخة بسابع صفر عام ١١٤١، وتبعه فى جلبها صاحب الجيش، والاستقصا، والدار المنتخب المستحسن، تركت نقلها هنا اختصارا، لكن صاحب الاستقصا أوردها بتاريخ سابع رمضان العام لا صفر وهو فى نظرى أصوب^(١) وأصح، ولما قدم الوفد الفاسى للحضرة السلطانية بيعتهم المشار لها

(١) فى هامش المطبوع: «لأن صفر عام واحد وأربعين لا زال مولاي أحمد الذهبى قائما ولم يمت حتى وصل شعبان هـ».

أبدوا أعدارا عما أضمره السفهاء، فأعرض عنهم فيما يتعلق بذلك الموضوع، ووصلهم بقطار ونصف ذهباً، اقتسموه أمامه بينهم.

ثم أمرهم بتهيء خمسمائة رام للتوجه معه للعاصمة المكناسية طبق عوائدهم المقررة فى ذلك، مع الملوك قبله من سفله وغيرهم، فأجابوا بالسمع والطاعة، ثم نهض المترجم لمكناس وفى معيته الخمسمائة رام المذكورة.

ولما كان على مقربة من العاصمة المكناسية وجد عسكر العبيد وقوادهم وقواد العرب والبرابر فى استقباله فرحين مستبشرين، فأدوا لجلالته ما يجب من مراسم التهانى والترحيب والإعظام والإجلال، ثم انضافوا لجنده وسار وألوية النصر تخفق، إلى أن حل بعاصمة والده مكناسة الزيتون فى موكبه المدهش العجيب الترتيب، وما استوى على العرش حتى وفد على شريف أعتابه الأشراف والعلماء والأعيان ببيعتهم العامة، ثم صارت وفود القبائل الشاسعة والدانية تفد على حضرته ببيعاتها، وهو يستقبل كلا بما يليق به، ولما فرغ من شأن الوفود فرق الصلات على سائر الطبقات كل وما يستحق، إلا أهل فاس فإنه حرمهم نواله.

ولما كان عيد الفطر قدم على الحضرة شرفاء فاس وعلماءها وأعيانها بالهدايا العيادية كغيرهم من الحواضر والبوادر لحضور العيد مع الجلالة السلطانية وفق المقرر المعهود، ولما رجع من مصلى العيد فرق الصلات والجوائز على جميع تلك الوفود الوافرة والعساكر والجيوش غير أهل فاس، وصلات الوفود كلما وفدوا على الجلالة السلطانية ومن ذكر معهم كانت من مألوف العادات عند ملوك دولتنا، ولا سيما فى أيام الأعياد، واستمر العمل على ذلك ولم يتعطل إلا فى هذه الأزمنة الأخيرة، ولما كان يوم ثانى العيد أمر بإحضار أهل فاس فأحضروا بمشوره السعيد وهو على سرير ملكه، ولما مثلوا بين يديه أمرهم بالكتب لإخوانهم بتسليم البساتين (الماعقل)

والقصابات لأن ذلك ملك للسلطان ومن وظيفه، وأوعدهم إن هم امتنعوا بهدم ديارهم عليهم، فلم يكن لهم إذ ذاك بد من الامتثال والجواب بالسمع والطاعة.

ولما جن الليل ارتحلوا إلى بلادهم فاس، وقرروا لإخوانهم الأوامر السلطانية، فاتفق رأيهم على رفض ذلك وعدم الإجابة له، واجتمع فقهاؤهم وأشرفهم وأعيانهم للمفاوضة والنظر في وجه يمكن به خلاصهم مما ذكر، وبإثر ذلك ورد عليهم من الحضرة السلطانية كتاب بتسليم ما ذكر لجانب السلطان، فحاصوا حيصة حمر الوحش وهاجوا وماجوا، ثم اتفق رأيهم على أن يعينوا وفدا يوفدونه للشفاعة لدى المترجم أولا، والتزموا بأداء جميع الوظائف التى كانوا يؤدونها لوالده وإعطاء الضمان على ذلك، فلم يرفع لهم رأسا، وردهم ناكسين على الأعقاب، ثم اتفق رأيهم ثانيا على أن يوجهوا لسدته الكريمة هدية تبرع بها تجارهم، وعينوا جماعة من أعيانهم توجهت بها فتعرض الودايا إليهم ونزعوا منهم الهدية وسلبوهم من كل ما بيديهم وأودعوهم سجن فاس الجديد، وصرحوا لهم بأن صاحب الترجمة أمرهم بحصار فاس الإدريسية.

ولما علم بذلك أهل فاس القديمة صمم العامة منهم على رفض بيعته، ونازع العلماء فى ذلك محتجين بأن بيعته فى أعناقهم فطاعته واجبة عليهم، إلا إن أمرهم بكفر براح فأغارهم الجمهور أذنا صماء وأعلنوا بخلع ربقة بيعة المترجم ورفض طاعته، ونادوا فى المدينة من أراد الخروج لبلاده فليتها لثلاث، وأغلقوا أبواب البلد وذلك فى سادس الشهر المذكور.

ولما اتصل هذا النبأ بالمترجم صمم على محاربتهم، فجيش الجيوش وخرج لإرغامهم على الرضوخ للطاعة فى خامس عشر شوال المذكور، وأحدثت عساكره الجراحة بفاس، وعثت فى السبل الموصلة إليها، وقطعت أشجار جناتها، وهدمت مبانيها، وأفسدت الزروع والبحائر، وقطع عنهم الوادى، وحاربهم من كل ناحية

وباب، والمدافع والمجانيق تمطرهم بوابل كورها وأحجارها المدمرة، واستمر القتال عليهم بالليل والنهار حتى سئموا وكلوا وملوا وضاق بهم المتسع، ويئسوا من النصر، وبارت حيلهم، وارتفعت الأسعار، وأنتنت المدينة من كثرة الأوساخ وعدم الماء، ولم يسعهم إلا الجنوح إلى السلم، فسعوا في الصلح فاشتراط المترجم عليهم تسليم المعادل والقصبات، فكبر عليهم ذلك واستأنفوا القتال وأظهروا التجلد.

وفى الرابع والخامس من ذى القعدة التقى الجمعان ووقعت بينهما معركتان خفيفتان بباب الجيسة، وفى الثانى منه وقعت معركة ثالثة بباب الفتوح، وفى الثالث عشر وقعت معركة كذلك، وفى الخامس عشر منه ركب السلطان فى ملاء من جيشه فلقه أهل فاس تائين وفى عفوه راغبين ولأمانه آملين.

فأجابهم لما طلبوا بالشرط المذكور، فلم يقبلوا، وفى الواحد والعشرين وقعت معركة عظيمة بباب الجيسة من الصبح إلى الزوال ومات من أهل فاس نحو الثلاثين، منهم: مولاى عبد القادر بن عبد الرحمن الدباغ، وعبد الخالق بن خالد، وعبد الله بن علال.

وفى الثانى والعشرين وقعت مقتلة بباب الفتوح مات فيها من أهل فاس ثلاثة أنفار.

وفى خامس ذى الحجة نزلت قنبلة بالعطارين وأهلكت بوجيدة بن عيشون. وفى عيد النحر نزلت قنبلة أخرى على قبة الضريح الإدريسي أصابت أناسا، هلك منهم رجل وجرح باقيهم، وكان ممن جرح العلامة أبو العباس أحمد بن الخياط بن إبراهيم الدكالى، وعطلت صلاة الجمعة.

ومن الغد وقعت معركة بباب الجيسة مات فيها من أهل فاس نحو العشرين، فتوسط أهل فاس للسلطان ببعض الوجهاء الذين اعتقدوا أن شفاعته لا ترد لديه، فأبى إلا إذا سلموا البساتين والقصبات، فامتنعوا وتمادوا على القتال.

وفى فاتح محرم عام اثنين وأربعين كان قتال عظيم ببابى الجيسة والمسافرين، مات فيه من أهل فاس نحو الثلاثين رجلا، واستؤنف القتال من الغد ومات فيه خلق، وارتفعت الأسعار وبلغ وسق القمح ثلاثين مثقالا، وزادت نيران الفتن توقدا، وتكاثر الهرج والمرج، وجعلت المحال السلطانية ترمى القنابل المدمرة على المدينة.

وفى ثالث صفر وقعت معركة أول النهار، ولما كان العشى اتفق أهل فاس على الهجوم على المحال السلطانية من سائر الجهات، فخرج اللمطيون من باب الجيسة للمحلة التى بوادى المالح وكان قائدها موسى الجرارى فوثبوا عليها، وفر أهلها واستولى أهل فاس على جميع ما فيها، وكان من جملة ما غنموا مدفعان.

وخرج الأندلسيون وأهل العدو من باب المسافرين واستولوا على جميع ما كان مدخرا بالسيد أبى جيدة حيث كان الحصن المنيع لتلك المحال، وساقوا من وجدوه من الجند هنالك إلى الباب وقتلوهم شر قتلة.

ومن الغد نصبوا المدفعين اللذين غنما بالقصبة البالية وجعلوا يرمون بهما فاسا الجديد.

وفى التاسع عشر من الشهر انضم الجيش السلطانى بعضه إلى بعض، وكان المترجم حاضرا بنفسه، ووقع قتال عظيم بين الفريقين انجلى بانهزام المحال السلطانية، ولم يمت من الجيش الفاسى غير ستة.

ومن الغد فقد الزرع بالمدينة، واشتد الهول، وعظم المصاب، ووقع التنازع بين العامة والرؤساء، وضعفت قوى المقاتلة عن المقاومة، ولم يكن لهم بد من الإذعان وتسليم ما طولبوا بتسليمه للجناح السلطانى.

وبسبب ذلك تم الصلح على يد القائد محمد السلوى بالضريح الإدريسى، وذلك يوم الثلاثاء عاشر ربيع الأول عند صلاة الظهر.

ثم اجتمع رؤساء الأشراف والعلماء وذوو النجدة والوجاهة، وطلعوا فى معية القائد السلوى المذكور لدار الملك لاستئناف تقديم الطاعة فقبلهم المترجم وقابلهم بالعفو والإغضاء، ووصل الشرفاء والعلماء بألف دينار، وكسا الأعيان، وولى عليهم الحاج على السلوى، وانطفأت نيران تلك الفتنة.

وفى الثالث عشر من ربيع النبوى عمر الجند السلطاني القصابى مع البساتين (المعاقل).

وفى العشرين منه نهض صاحب الترجمة من فاس ووجهته العاصمة المكناسية، ولما حل بها وجد القبائل استأنفت عملها الأول من ركوب الخيل واقتناء السلاح والعيث فى الطرقات، فأصدر أوامره للعبيد بتجهيز الحركة لتمهيد البلاد، وقطع جرثومة الفساد.

ثم نهض قاصدا تادلا لقمع آيت يَمور الذين نزلوا بها لما أخرجهم آيت ومالوا من رأس ملوية، وأضروا بأهلها، ولما أحسوا بمقدمه فروا أمامه ودخلوا بلاد آيت يسرى، فاقتفى أثرهم وأوقع بهم شر وقعة بوادى العبيد نهبت فيها أموالهم وقتل منهم آلاف.

ولما رجع المترجم لتادلا قتل من أعيان رماة أهل فاس عشرين، وكتب لأهلهم يعتذر عن قتل من قتل منهم مبينا لهم وجه ذلك وموجبه، وأمرهم بتوجيه حركة أخرى فامثلوا وعينوا من يتوجه للحركة وفق الأمر الصادر إليهم، وكان الذى استعرضهم حمدون الروسى برأس الماء، وبعد الاستعراض توجهوا للحضرة السلطانية.

ومن غد يوم الاستعراض قتل الروسى المذكور عبد الواحد بتير، ومحمد بن الأشهب بباب السجن وأمر بجرهما، ثم من الغد أصبح يهدم أبواب المدينة، فهدم

باب المحروق، وباب عجيسة، وباب الحديد، وكان ذلك لما تقدم من الاستعانة بغلقها على التمرد ونبذ ما لزم من الطاعة.

وفى الخامس والعشرين من ربيع الثانى بعث المترجم للعلامة أبى عبد الله محمد بن عبد السلام بنانى فلحق به بمكناس، ولما مثل بين يديه سب وجدع وقرع ووبخ لأمر سوء بلغه عنه، وعزله عما كان بيده من الوظائف بجامع الأندلس، ثم عفا عنه وأغضى.

وفى الحادى عشر من جمادى الثانية عزل على السلوى عن عمالة فاس وسجنه لما تظاهر به من السوء لأهل فاس وقتله رئيس أهل العدوتين الشيخ دحمان المنكاد، وأسند عمالة فاس للبادسى بن حمدون الروسى.

وفى العشرين من رمضان عزل أبا العباس أحمد الشدادى عن قضاء فاس، وولى مكانه أبا الحسن على بوحنان.

وفى الثانى عشر من شوال عزل البادسى عن عمالة فاس، وولى مكانه عبد النبى بن عبد الله الروسى، فأساء السيرة فعزله، وولى مكانه حمدون الروسى وأوصاه بالرفق واللين، وحذر وأنذر، ولكن ما بالذات لا يتبدل فلم يزد التحذير إلا إغراء:

إذا كان الطباع طباع سوء فلا أدب يفيد ولا أديب

وفى أوائل جمادى الأولى صدر الأمر بهدم القصبة البالية وحطب ما فيها من الأجنة، ولما علم السلطان بذلك سجن الناظر ونكل بمن فعل ذلك من الولاة محتجا بأنه لم يأمر بذلك، وإنما أمر بتخفيف بعض الأشجار التى لا غلة لها، ثم أمر ببناء ما تهدم وغرس ما قلع، وفى أواخر شعبان قتل عبد الواحد بن سودة الذى كان أمين المواريث قصاصا.

وفى محرم الحرام عام ثلاثة وأربعين ومائة وألف ابتداءً فى هدم أسوار المدينة، وصرح بأنه إذا فرغ من هدم الأسوار يشرع فى هدم الدور وأمر بحمل الأتقاظ لفاس الجديد.

ثم لما اتصل بالمرجم عتو الروسى وطغيانه، كتب كتابا بتوبيخه وتهديده وإيعاده قرئ على منبر القرويين، ولما تيقن أن لا ملجأ له ولا منجى مما جنت يده فر لزواية جبل زرهون، حيث مدفن البضعة النبوية الطرية، إدريس بن عبد الله الكامل، ولما رجع المترجم من حركته وتوجه لزيارة الضريح الإدريسي تعلق حمدون بأذياله فلم يلتفت إليه، ثم بعد ذلك أحضره بين يديه وعدد عليه ما ارتكبه من الجرائم التى لم يجد لها مدفعا، ثم أمر بتوجيهه لفاس وقتله قصاصا، فأشدد بين يديه ما أنشده بعضهم لأبى جعفر المنصور العباسى:

إنا بطاعتك الألى كنا نكابد ما نكابد
ونرى فنعرف بالعدا وة والبعد إذا تباعد
هذا أوان وفاء ما سبقت به منه المواعد

فأطرق المترجم ساعة ثم قال له وهبتك لشيبتك، وأبقيتك لصيبتك، على أن لا تقرب ساحتنا، ولا تحوم حولنا، وإلا حلت بك عقوبتنا، وولى على فاس كاتبه الطيب بن حلوة، وذلك فى يوم الاثنين تاسع عشر شعبان، وكان شديد الشكيمة على أولاد العرب والعلماء، ظلوما غشوما، لم يتول على فاس أتعس وأشأم منه، حتى سمى حجاج الوقت، يقال: إنه هو الذى أغرى المترجم على نهب زرع العرب الذى كان بخزائنها، فأمر بحيازته، وتوجه الأشراف والعلماء للسلطان فى الشفاعة فردهم خائبين، واستمر ابن حلوة على عمله من النهب والغصب والقتل والتدليس وتشويه وجه الحقيقة إلى أواخر رمضان وقيل شعبان، فنكبه المترجم وعزله وغربه إلى مكناسة الزيتون، فلم يزل بها فى شبه عقال إلى أن لقي ربه بعد

خمسة أشهر، وولى على فاس مكانه عبد اللطيف بن عبد الخالق الروسى، ووجه به عاملاً فوصل إليها فى سابع شوال.

وفى ربيع الثانى أصدر المترجم ظهيراً شريفاً نصه بعد الحمدلة والصلاة والطابع بداخله (عبد الله بن أمير المؤمنين إسماعيل الحسنى الله وليه ومولاه) وبزواياه اليمن والإقبال وبلوغ الآمال والسعد:

«كتابنا هذا أسماء الله وأعز أمره، وأطلع فى سماء المعالى شمسُه المنيرة وبدره، بيد حامله الفقيه الأجل، المجود الأفاضل، السيد الحاج أحمد بن عاشر العامرى يتعرف منه بحول الله وقوته، وشامل يمنه وبركته أننا جددنا له بحول الله وقوته حكم ما بيده من ظهائر سيدنا الوالد قدس الله روحه فى أعلى الجنان آمين، وظهائرنَا الكريمة التى تضمنت توقيره واحترامه على مر الليالى والأيام، والسنين والأعوام، فلا سبيل لمن يروم أو يحدث فى جنبه الملحوظ نقصاً ولا زيادة، وأبقيناه على مرتبه الذى كان يقبضه من وقف أحباس مسجد سلا الأعظم عمره الله بدوام ذكره، وقدره خمسة وعشرون أوقية دراهم من كل شهر إعانة له على ما هو بصده من تعليم الطلبة بالمسجد المذكور، وعلى الفقيه المذكور بالاجتهاد فيما كلف به، والواقف عليه يعمل به ولا يتعداه والسلام فى الثانى والعشرين من ربيع الثانى عام ثلاثة وأربعين ومائة وألف».

وفى السابع والعشرين من شوال ١١٤٣ وقع الشروع بأمر المترجم فى هدم مدينة الرياض المارة الذكر التى كانت زينة مكناسة وبهجتها، وفيها دور العمال والكتاب والأوداية وأهل الدولة الإسماعيلية، والتى كان بها المسجد الإسماعيلى الأعظم والمدرسة والأسواق والحمامات، وكان يقصدها التجار بالبضائع، فلم تمض عليها عشرة أيام حتى صارت كدية تراب.

وكان قد أشرف على الشروع فى هدمها بنفسه وفى نظرى أن أحسن ما يعلل به هدمه إيها زيادة على ما أسلفناه، هو أن صدور الدولة وذوى الحيشات من رؤساء الجيش ألتهتهم قصورهم الفاخرة بزخارفها عن القيام بوظائف الدولة،

واتفق ما حدث من الفتن بعد وفاة والد المترجم وأساطين دولته وساساتها، ولما آل الأمر للمترجم لم يجد من أولئك من يعيره لتنفيذ أوامره أذنا صاغية، بل قوبل جلها إن لم نقل جميعها بالرفض وإبداء العلل الواهية زيادة على كونها صارت بعد أبيه مركز المؤامرات السياسية عليه وعلى إخوته.

وأثناء هذا وسوس بعض شياطين الإنس لصاحب الترجمة فى أبى العباس أحمد بن على الريفى حتى أوغر صدر السلطان عليه، وصمم على المكر به، فطير له الإعلام بذلك بعض أصدقائه من الحاشية الملكية فخاف بطش الملك ووجه بهدية ذات بال جمع فيها تيجانا مرصعة بنفيس الأحجار وأموالا طائلة وأوفد معها ثلاثمائة نفر من أعيان إخوانه أهل الريف يبرهنون للمترجم على إخلاص مرسلهم ورضوخه للطاعة وبراءته مما ألصق به ويطلبون أمانه فأمر بقتل جميعهم، ولما اتصل ذلك بالريفى المذكور قام لإيقاد نيران الفتن على ساق حتى اضطربت وتسعرت وتطاير شررها، وعم الفساد الحاضر والباد، وقطعت السابلة وكان ما كان مما لست أذكره.

ثم بلغ المترجم عيث آيت يمور وتمردهم واشتغالهم بالسلب والنهب، فحشد إليهم جيوش العبيد والودايا ونزل بساحتهم من غير تأهب لهم ولا استعداد للمقاومة، فأخذهم أخذاً وبيلا، وقتل أبا يعقوب الحنصالى شر قتلة، إذ وجده نازلا بين أظهرهم، قال فى نشر المثانى: ولما قتله منع الناس من دفنه حتى تمزقت أشلاؤه وتفرقت أعضاؤه، فعل ذلك به لئلا يتوهم ضعفة العقول من أصحابه أنه لم يمت لأنه كان يخالط علم الحدثان.

وفى العام نفسه قتل مائتين من لصوص حجاوة على قطع الطريق على المارة ببلادهم، ولما قتلهم خرج أهل مكناس والطالبون للفرجة فى المقتولين بباب البطيوى، فاتفق خروج المترجم فى تلك الساعة على ذلك الباب، فلما رأى القوم

قصدهم ظانا أنهم المأمور بقتلهم ففروا خوفا منه ودخلوا كهفا على مقربة من المحل يختفون فيه، فقصدتهم حتى وقف على باب الكهف وأمر من كان معه بغلق باب الكهف عليهم بالأحجار فأغلقوه غلقا متقنا، ومات جميع من به ولم يوقف لهم بعد على خبر، ولم يعرف عددهم، وفي العام أيضا أمر عبيد مشرع الرمل بالتهيؤ للحركة لجبال فازاز.

وفيه ولى أبا عبد الله محمد وعلى الزمورى عمالة فاس وأمره باستصفاء أموالهم وأن لا يترك لهم قيراطا، إذ كان البعض نقلوا إليه أن المال أطغاهم وأنهم يحاولون الخروج عن طاعته وشق العصا عليه، فتوجه الزمورى المذكور إلى فاس ونزل بدار أبى على الروسى من حومة المعادى وصار ينقب على ذوى اليسار ووظف عليهم أولا غرامة قدرها خمسمائة ألف مثقال وبالع في التشديد في اقتضاء ذلك منهم، وعمر بهم السجون، ومن تغيب يلقي القبض على أقاربه.

ولما استوفى العدد المذكور ممن ذكر صرف وجهته لأهل الحرف والملاكين والبطالين، وقام بسبب ذلك هرج ومرج، وفر الناس لشواهد الجبال والقرى والأمصار الشاسعة، وامتدت ولايته عليهم ثلاثة عشر شهرا، وكان كلما قبض شيئا وجهه للمكلف بالداخل للعاصمة المكناسية.

وقد ساق العلامة المؤرخ ابن إبراهيم الدكالى هذه الحادثة ببعض مخالفة وزيادات ونص ماله في تقييده: وفي هذا الوقت قدم عبد الرزاق بن على ويشى، وقبض جميع تجار أهل فاس وسجنهم ودخل ديارهم وحوانيتهم، وشرع في قبض المال منهم، ثم دفعوا مائة وعشرين قنطارا، وكان من جملة من قبض في المال الحاج محمد الأندلسى الرحوى، أخرجوه من حرم سيدى أحمد الشاوى، وأدخلوه السجن وضربوه حتى مات، وطوفوه على النعش وهم يقولون هذا جزاء من لم يعط مال السلطان، وكان ذلك في صفر وجاء العفو يوم الجمعة السادس عشر منه.

وفى الحادى والعشرين منه ذهب عبد الرزاق بمال التجار الذى قبض ودفعه للسلطان، وكان معه التجار الذين دفعوه، فأمرهم بالزيادة عليه، وسجن بعضهم وقد كان عبد اللطيف الروسى من جملتهم، وقد كان عبد اللطيف هذا أمر بقتل السيد الحسن بن السيد عبد العزيز بن إبراهيم الموقت بمنار القرويين بإشارة من القاضى السيد على بو عنان، وقتل بعد صلاة العصر من يوم السبت خامس المحرم عام ١١٤٥.

ولما تلاقى عبد اللطيف المذكور مع السلطان وتكلم معه فى شأن المال الذى دفع أهل فاس غضب عليه السلطان من أجل الرامة، وأمر بضربه بالسياط، فضرب ثم ثمانمائة، ثم طعنه برمح وأمر بذبحه وجره لباب الملاح جزاء وفاقاً بما فعل بالسيد الحسن المذكور.

ثم تولى حكومة فاس الطالب محمد بن على ويشى أخو عبد الرزاق المذكور، وكان حسن الأخلاق يوقر الأشراف والعلماء وأبناء الصالحين، فكان جعل للطلبة خراجا يقبضونه من وفر القرويين، إلا أنه كان فظا غليظا على التجار لا يقبل منهم عذرا، وقبض منهم زمن ولايته أموالا عريضة، وانتفى بسببه من فاس من أهل الغرامات ما لا يحصى، وبقي حاكما بفاس من حين قتل عبد اللطيف الروسى إلى وقت نجاة المولى عبد الله بنفسه كما يأتى هـ.

وفى ١١٤٤ لما كان المترجم وجه للمولى الطيب الوزانى فى شأن الباشا عبد النبى الحيانى، وقد كانا مستجيرين بوزان وتراخى المولى الطيب فى توجيههما إليه، بعث له قائلا: والله إن لم تأت بهما حتى أهدم عليك تلك الدشرة، وأجرك فى أزقتها، فذهب إليهما فامتنعا من الخروج فأعطاهم عهدا ومواثيق بأنه لا يتخلف عنهم ولا يسلمهم، فخرجا معه وخرج معهم جمع من الأشراف والصبيان أولادهم بالألواح.

فلما وصلوا لحضرته وأعلم بورود عبد النبي نهض وخرج إليهم راجلا، وقبض على حية المولى الطيب وهزه منها وقال له: أخى فارقنى فما أدخلك بين عبيدى ورعيتى. . فقال له: أريد من الله ومنك أن تعتقهما، فقال له: إن أعتقتهما فلست بولد لإسماعيل بن الشريف، والأشراف والصبيان واقفون وييدهم غطاء جداهم المولى عبد الله الشريف، وغطاء المولى التهامى.

والتفت لعبد النبي وصار يخطب عليه ويعدد مساويه، وكان من جملة ما خاطبه به: إننى ما نسيت ولا أنسى ما شافهتنى به على رءوس العبيد: والله إن قبضتك يا عبد الله بوسبيط الصغير^(١) ريبب الدغمى، حتى أرمى على رجلك كبلا (قيدا) من عشرين رطلا، وألقيك فى الدهليس إلى أن تموت فيه، وتكررها مرارا. . وتذكر اليوم الذى قبضت فيه لجام فرسى ودككته إلى ورا، إلى أن سقطت من فرسى على الأرض وقلت لى: اذهب من هنا، إنما أنت طفل صغير، فطلعت إلى ربوة وبكيت حتى كاد أن يعود الدمع دما، ومن أجلك أنفقت بيت المال كان إذا أتى إلى صاحبك بكتابك أو كلامك لم يكن لى بد من إعطائه قنطارا سخرة له اتقاء لشرك، ثم قال لمن حوله اقبضوا الظالم عدو الله فصاروا يجرونه وقد كان قابضا بيد المولى الطيب، فقطعوا يده وأخذوه، وكذلك فعلوا بصاحبه قدور السهل، ذكره الضعيف.

وفى عام ستة وأربعين، عقد للباشا قاسم بن ريسون على جيش من العبيد منتظم من خمسة عشر ألف فارس، وللقائد عبد الملك بوشفرة الأودى على ثلاثة آلاف فارس من إخوانه الودايا، ووجه بالجميع لجبل آيت ومالوا، ولما عبرت تلك الجنود، وادام الربيع على مجاز البروج، خيمت بأدخسان، ولما رأى أولئك البرابر العتاة ما لا قبل لهم بمقاومته، فروا للجبال فاقتفى الجند أثرهم إلى أن توغلوا فى

(١) فى هامش المطبوع: «كان المترجم كذلك رقيق القدمين حذاءهما كأحذية الأطفال كما تقدم فى وصفه».

وعر تلك الجبال، ثم وجه البرابر ذات ليلة من سد الثنايا التي دخلوا منها بالأشجار الأرز.

ولما كان الصباح هجموا عليهم من كل ناحية وقتلوهم قتالا شديدا في تلك الأوعار التي لم يقرءوا لها حسابا، فهزم الجيش هزيمة شنعاء، وولوا الأدبار، فوجدوا الثنايا قد سدت دونهم فازدادوا فشلا ورعبا، ولم يسعهم غير التراجع وتسليم الخيل والسلاح والزاد، ولما تجردوا من كل شيء وتركوه غنيمة باردة حقن البربر دماءهم، ولم يقتلوا أحدا منهم.

ولما لحقوا بالمرجم لمكناس حفاة عراة منحهم وكساهم ووعدهم بإخلاف ما ضاع لهم، وأمرهم بالرجوع لمشرع الرمل فرجعوا وقد بذروا في قلوبهم بغضه، شأن ما جلبت عليه الطباع فيمن تسبب لها في لقي ما تكره، وإلا فالمرجم إنما كان وجههم لحسم مادة المفسدين.

وفي عام سبعة وأربعين: اتفق العبيد والودايا على قتله والتمثيل به انتقاما منه لإسرافه في قتلهم حتى كاد أن يستولى على رءوسهم وصناديدهم سعيا وراء كسر شوكة استبدادهم وطغيانهم على الملوك وإيقادهم نيران الفتنة في الرعية، وأخذوا بدم صنوه أبي مروان عبد الملك الذي خنقوه، وكان قصده استئصال شأفتهم لتحقيقه أنه لا يستقيم معهم ملك لأحد، قالوا بلغ عدد من قتل منهم عشرة آلاف ونيف، «إنما جزاء الذي يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض».

ثم إن المرجم أُنذر بما صمم عليه العبيد من اغتياله، فخرج من العاصمة المكناسية يوم الأحد ثامن وعشر ربيع الثاني ليلا ناجيا بنفسه، ومن الغد الذي هو يوم الاثنين بلغ لفاس خبر خروج السلطان، فهرب عاملها محمد بن على

ويشئ وأتباعه، وسار المترجم إلى أن بلغ آيت أدراسن ففرحوا به وآووه وعززوه إلى أن بلغ لمشرع بولعوان.

وكان هنالك بجانب السلطان عدد وافر من الزرع، ففرقه في أتباعه وضعاف الناس، إذ كان الغلاء بمراكش ونواحيها، ففرح الناس واطمأن المترجم وودعه أهل تادالا، وانقلبوا لحللهم ومحالهم، وسار هو إلى مراكش، ثم تارودانت، وأقام بها أياما، ثم انتقل إلى السوس، ثم وادي نول حيث استقرار أخواله المغفرة فنزل عليهم.

وكان في معيته ولداه أبو عبد الله محمد مار الترجمة دون بلوغ، وأبو العباس أحمد فوق البلوغ، قاله الزيانى: وقال غيره: إنه ترك الأول من الولدين المذكورين مع جدته خنائة بمكناس، وهو ما حققه في الدر المنتخب وهو الذى يشهد له التاريخ.

وكانت مدة خلافته هذه خمسة أعوام وثمانية أشهر ونصف على ما شهره فى الدر المنتخب، وكانت مدة مقامه بوادي نول عند أخواله ثلاثة أعوام.

أما العبيد فإنهم لما علموا بذلك وجهوا لسجلماصة جريدة من الخيل تأتي إليهم بصنو صاحب الترجمة أبى الحسن على الأعرج ليبياعوه، على ما سنفصله بعد فى ترجمته بحول الله.

وفى عام ثمانية وأربعين ومائة وألف: كانت فتنة عبد الله بن محمد الكرسيفى مدعى المهديوية بالسوس، وارتفع صيته فى تلك الأصقاع، ملأ أرجاءها، واقتحم حصن أكدير عنوة، وفعل بأهلها ما يخجل وجه المروءة، وخيم بالمحل المعروف بفونت تحت أبى القناديل، ومنعهم من الماء حتى مات جل تلك البلاد نساء ورجالا وصبيانا عطشا، وحيل بينهم وبين المقابر العامة فصاروا يدفنون

موتاهم بالدور والمساجد، وكان الفتان المذكور يحث أهل سوس على غزو أهل أكدير ويقول: إن ثلثهم نصارى، وثلثهم يهود، وثلثهم عصاة حصب جهنم.

فأجابه لذلك خلق كثير من أهل سوس، والحال أنهم لم يروا البحر قط، ولما نزلوا بساحته أخذوا يشربون ماء البحر ويلثون به سويقهم، فهلك منهم عدد عديد، ثم عاد الثائر لتارودانت مصمما على الإيقاع بهوارة، ولما شعروا بمراده اتخذوا سائر الاحتياطات اللازمة وأجمعوا أمرهم على اغتياله، فأوعز إليه بذلك بعض المعتقدين له، فأشاع أنه يريد زيارة أبى حفص عمر وهارون برأس الوادى، فتبعته هواره إلى أن لحقوا به بثلاثاء تماصت بزواية السيد عياد، وأخذوا يلعبون بالبارود مع أصحابه مظهرين الفرحة والطاعة له، فلم يأمن فيهم، ونجا بنفسه فاقتفوا أثره إلى أن لحقوا به بصهريج آيت أيوب فى تنزرت، وأطلقوا عليه أفواه مكاحلهم بالرصاص ففر ودخل دار الشيخ أحمد ويدير، ومات بداره ونهب آيت يش ماله.

قاله الضعيف: وقد وقع لصاحب الدر المنتخب فى سوق هذه الحادثة تخليط واشتبه عليه أمرها واشتبك وارتبك، وبموت هذا الفتان الأفك اطمأنت نفوس أهل تلك البلاد، وأمنت سبلهم، وكان الذى قتله هو ابن همان وماين الهواريان ويعيش الزكنى المنبهى.

ثم وفد المترجم على تارودانت واستولى عليها وعلى أحوازها، وبويع له بتلك الأصقاع، ووقعت بينه وبين هواره معارك عظيمة انجلت بانهمزاهم وفشلهم كل الفشل، ثم نهض من تارودانت وخيم ببلاد السراغنة وأوقع بهم وقعة شنيعة، وحكم السيف فى أربعمائة رجل من عوامهم، ومائة من طلبتهم، حيث إنه وجدهم هدموا مسجد القصة وصيروه بلاقع، وكان ذلك كما قال الضعيف سنة ١١٤٨ ثمان وأربعين.

وانظر هذا التاريخ مع ما سبق أنه بقى بوادى نول ثلاثة أعوام، وكذلك يخالفه ما فى الاستقصاء من أنه لما كان شهر ذى الحجة من سنة تسع وأربعين ومائة وألف ورد الخبر بأن السلطان المولى عبد الله قد أقبل من وادى نول، ووصل إلى تادلا، فاهتز العبيد له وتحذت فرقة منهم برده إلى الملك، وخالفهم سالم الدكالى فى جماعة من شيعته، وقالوا: لا نخلع طاعة مولاي على، إذ كان سالم هذا وأصحابه هم الذين تسببوا فى خلع المولى عبد الله، وتولية أخيه مولاي على.

ثم إن شيعة المولى عبد الله قويت وكثروا أصحاب سالم وأعلنوا بيعته، ففر سالم فيمن معه من القواد إلى زاوية زرهون مستجيرا بها.

ولما سمع بذلك السلطان المولى على فرَّ من مكناسة إلى آخر ما يذكر فى ترجمته، ولما فر اجتمعت كلمة العبيد على ذلك أهل فاس وسائر القبائل، ثم إن سالما الدكالى الذى بزرهون كتب إلى أهل فاس يقول لهم: إن الديوان قد اتفق على خلع المولى عبد الله، وبيعة سيدى محمد بن إسماعيل المعروف بابن عريبة، والمشورة لعلمائكم، فأجابوه بأن قالوا: نحن تبع لكم، فلما سمع أهل الديوان بما فعله سالم الدكالى وما تقوله عليهم خرجوا من المحلة إلى زرهون، وقبضوا على سالم الدكالى ومن معه من القواد وبعثوا بهم إلى السلطان المولى عبد الله بتادلا، فاستفتى فيهم القاضى أبا عنان، وكان يومئذ معه فأفتاه بقتلهم هـ، ونحوه فى الدر المنتخب، والترجمان العرب، وغيره من كتب الزياني.

لكنهم صرحوا بأن القبض على الدكالى وأنصاره كان بإيعاز من المترجم، وأنه لما ألقى القبض عليهم قيدوا بالحديد ووجه بهم لصاحب الترجمة وهو يومئذ بتادلا، وهنالك وقع استفتاء من ذكر فيهم وقتلهم، واستؤنفت البيعة للمترجم،

ونهب من تادلا وسار إلى أن خيم بأبى فكران وتوجه لاستقباله، ثم أهل فاس ومكناسة أشراف وعلماء وأعيان، ولما مثلوا بين يديه وقدموا إليه بيعتهم سب وجدع وهدد وأوعد على ما صدر منهم وتكرر من شق العصا والخروج عن الطاعة، وقتل جماعة من أعيانهم، وعزل قاضى العاصمة المكناسية أبا القاسم العميرى، وولى مكانه الطالب بوحنان، وألقى القبض على عاملها مسعود بن عبود، وولى على فاس محمد بن على ويشى.

ولكنه لما توجه إليها لم يستطع الدخول إليها خوفا على نفسه من الإيقاع به، ونزل بالقصبة الجديدة إذ كان فيها عبيد المترجم وخاصته أدالة.

وفى يوم الخميس خامس عشرى صفر مد الودايا يد النهب والسلب فى الطرقات، ونهبوا ما كان بسوق الخميس من الماشية والدواب، أخذوا من البقر نحو الألفين، ومن البغال نحو سبعمائة، ومن الثياب عددا عديدا، وأغاروا على سرح أهل فاس وعاثوا فى ضواحيها والسبل الموصلة إليها، واتفق أن كان اليوم العنصرة، وفى اليوم نفسه شرع أهل فاس فى بناء أسوار المدينة التى تهدمت.

وفى يوم الأربعاء فاتح ربيع الأول قدم مسعود الروسى من مكناس لفاس والمدينة فى حصار، فزار الضريح الإدريسى وانصرف لداره بالعدوة، فسأله بعض القوم عن سبب مجيئه، فقال: إن السلطان مولاى عبد الله ولانى حكومة فاس، ولما شاع ذلك النبأ تحزبت الغوغاء والأخلاط وهجموا عليه وقتلوه أمام داره وجروه إلى توتة الصفارين، وهموا بتعليقه عليها فتعذر^(١) حمله لضخامة جثته وبقي ملقى هناك إلى الغد هـ.

وفى نظرى أن ما جاء فى تاريخ الضعيف نقلا عن تاريخ ابن موسى أصح وأقعد، لأنه عاصر المترجم وحفظ ووعى وقيد على عهده ونقل كلامه الضعيف ولم يتعقبه.

(١) فى هامش المطبوع: «لا تعذر فى الضخامة مع التحزب المذكور».

وفى الدر المنتخب نقلا عن صاحب نشر المثنى: أن السلطان - يعنى المترجم - نادى بالوعيد الشديد لمن أتى بالميرة لفاس، وبقوا فى الحصار إلى مهل ربيع الأول، فأرسل السلطان القائد مسعود الروسى والياعلى فاس لما شاع عنهم أنهم إنما كرهوا محمد بن على المذكور، وأما غيره فهم راضون به أيا كان، ففرح عامة الناس بدخوله لخمود الفتنة، وإطفاء نارا الغلاء، فدخل الروسى دار أخيه بعدوة الأندلس من فاس، وجعل الناس يأتون للسلام عليه وكثر عليه الازدحام وهو داهش لا يدري ما يحل به، ثم دخل عليه من جرى فى الفتن فقتلوا بعض أصحابه بين يديه، وخرج هو فاراً لدور بعض الأشراف محترما ومحترفا.

فلما كان الليل اجتمعوا على قتله أخذا بثأر أخيهم بوده إذ كان قتله فى زمن ولايته لمولاي على، فأخرجوه من المحل الذى كان به وقتلوه، وأصبحوا على أشد ما يكون فى حصارهم، وغلا الزرع وكان به نحو ثمان موزونات للصاع النبوى، وقل الإدام، وانقطع اللحم واستمروا على حصارهم ومكث أهل فاس على نصر مولاي عبد الله والخطبة به على المنابر هـ.

وفيه أيضا نقلا عن صاحب النشر وغيره قائلا ما لفظه ومن كلامه الممزوج بكلام غيره: وفى عاشر ربيع الأول تولى عبد الخالق الزيتونى أمر فاس بإجماع أهلها، وجعل ينظر فى مصالح المسلمين من إصلاح الأسوار وغيرها، وفى السادس عشر قبض الودايا ثلاثة من أهل فاس وطوفوهم بفاس الجديد وقتلوهم، وقتل أهل فاس الهزاز، وابن حمو.

وفى يوم الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الثانى اختلفت كلمة اللطيين والأندلسيين فى ذكر السلطان مولاي عبد الله على المنبر فى الخطبة، فأراد الأندلسيون ذكره، وامتنع اللطيون، وصليت الجمعة بذكره فى مسجد الأندلس والطلعة، وترك خطيب باب الجيسة ذكره، وكذلك نائب خطيب القرويين، لأن

خطيبها قاضى فاس كان بالحرم الإدريسي محترما، وأما خطيب المقام الإدريسي فإنه كنى عنه ولم يصرح، وإنما قال: وانصر اللهم من بايعناه على طاعتك من أبناء السادات الشرفا، سمي جده والد المصطفى.

وخاض الناس فى ذلك وكثر القيل والقال، واجتمع العلماء فى المقصورة فانفصلوا عن غير فائدة.

وفى السادس والعشرين اجتمعوا أيضا بمسجد اللبارين، فأما الفقيه سيدى محمد بن عبد السلام بنانى، فقال للعامة: أخرجوني حتى أراجع المسألة وأراجع كتب الأئمة، وأما الفقيه السيد محمد الزيزى فقال لهم: طاعة السلطان واجبة، وإن تفاحش ظلمه فإنه متغلب ولا تقدرين على مقاومته، ومن قال لكم غير هذا فقد غشكم، وأنا لكم من الناصحين.

فهاجت العامة عليه، وهموا بقتله حتى تشفع فيه بعض الأشراف، وانفصل المجلس على ما ذكره بنانى ومن تبعه من التأجيل، ثم اشتد الغلاء فبلغ القمح عشرين مثقالا والشعير عشرة مثاقيل، وتحير الناس فى أمورهم، وأراد اللمطيون أن ينصروا سيدى محمد بن عريبة وامتنع الأندلسيون.

وفى مهل جمادى الأولى تذاكر الناس فى الصلح مع مولاى عبد الله على يد السيد أبى بكر بن محمد بن الخديم الدلائى، فلم يظهر لذلك أثر بعد أن كانوا نصره على المنابر فى الخطب.

وفى ثانى جمادى الأولى جاء القائد محمد مغوس المجايطى بقصد الصلح، ثم إنه وقع خصام بينه وبين الودايا فجرحوه، وذهب لمكناسة وتوفى بها فى سابع الشهر المذكور.

وفى السابع عشر منه تناول أهل فاس صلحا مع السلطان على يد زيان بن على ويشى رئيس المحلة النازلة فلم يكمل، لأنه اشترط عليهم شروطا لم يقبلوها.

وفى يوم الثلاثاء السادس والعشرين منه وقع خصام بين بعض البوابين بباب الجيسة مع خديم من خدام الشرفاء أهل دار القيطون فضربوه، فلما سمع بذلك أصحابه الشرفاء تحزبوا، وانضاف إليهم جماعة وجاءوا لاشبارات من ناحية سيدى اللزاز من ناحية الطالعة، فلما وصلوا للقصة الجديدة وتلاقوا مع محمد بن على ويشى قائد مولاى عبد الله، قالوا له: نحن لا نوافق على ما فعله أهل فاس، وما خرجنا إلا لهذا الغرض، فأعرض عنهم، وحينئذ اجتمع اللمطيون والأندلسيون بعد صلاة العشاء بالقرويين وتحزبوا على عدم نصر مولاى عبد الله، وشد السلطان فى الحصار مدة من أربعة أشهر ولم يكن بين أهل فاس ومن حاصرهم قتال ولا رمى بكور ولا بب ولا حفر مينة ولا طمع فى الاستيلاء على المدينة، لأن السلطان أوصاهم بعدم ذلك، وقال: إن ذلك لا يفيد فى فاس شيئا، وقد بالغت فى الحصار الأول الذى قبل هذا الجهد وما حصل لى منى ذلك إلا تضيع الأموال والمشقة، وإنما يدعن أهل فاس المساكين من أهلها والضعفاء الذين لا يقدرّون على الدفاع عن أنفسهم شدة من الغلاء والجوع، هذا كله والسلطان بمكناسة يقتل من طغى من العبيد وتجبر هـ.

وفى يوم الثلاثاء سادس عشرى وقيل الثامن من جمادى الأولى عام تسعة وأربعين، اجتمع رأى أهل فاس والودايا ومن شايعهم على رفض طاعة صاحب الترجمة والبيعة لصنوه أبى عبد الله ابن عريبة مار الترجمة، وقد كان الناس سئموا الفتن وإتلاف الأنفس والأموال وضيق المعيشة وقطع السابلة وكلوا وملوا. وفى الاستقصا أن بيعته كانت فى خامس الشهر سنة خمسين. هـ.

ومن الغد الذى هو يوم الأربعاء أعلنوا بذلك ونادوا به فى الأزقة والأسواق وكتبوا البيعة لابن عريبة المذكور، ومن توقف أو خالف فى ذلك نكلوه، وإن كان موظفا عزلوه، وكان ممن أخر عن الوظيف لعدم إسرعه بالإجابة لما ذكر أبو عبد

الله محمد البكرى الدلائى وسجن وذعر، وأبو عيسى المهدي الفاسى، وأبو مدين أحمد الفاسى، وأبو العباس أحمد بو عنان، الأول منهم عن إمامة الضريح الإدريسي وولى مكانه أبو عبد محمد بن على بن إبراهيم، والثانى عن الإمامة بمدرسة الطالعة وعين للإمامة بها بدلا عنه الشيخ التاودى بن سودة، والثالث عن الإمامة بجامع الأندلس وولى مكانه السيد بو عزة بن إدريس المشاط، والرابع عن إمامة جامع باب الجيسة وعين بدلا عنه أبو عبد محمد فتحا السلاوى.

ولما اتصل ذلك بالترجم جمع أهله وعياله وماله وكل ما له قيمة بالقصر الملكى بمكناس وأطلق سراح من كان بالسجون، وخرج من مكناسة ونزل بالحاجب، وقيل بجبال فازاز، والتفت عليه البرابر وصاروا يغيرون على سرح مكناسة وسائس وما والى ذلك.

ثم بعد ذلك بخمسة أيام أتى المترجم بالبرابر أتباعه ليلا إلى مكناسة ونهب جميع أحوازها، ووصل إلى سيدى فرج وبقي هنالك إلى أن طلعت الشمس وفتح باب الأروى فدخلها وهدم البيوت وحرقت المساكن، وأخذ جميع ما كان بها من خيل وسلاح، ورجع للحاجب فاقتفى أثره جند صنوه ابن عريبة، ولما رأى المترجم ما لا قبل له به نجا بنفسه وترك مخيمه غنيمة، فتبعته جنود العبيد والودايا وأهل فاس إلى ملوية وتوغل فى جبالها وخفى عنهم ولم يدروا أين ذهب، وفى منقلبهم اعترضهم البربر وسلبوهم من كل شىء، واشتبكت الفتن وارتبكت، وفى هذه الفتن كانت منية المولى الرشيد صنو المترجم، والقائد ابن النوينى.

وفى نسخة عتيقة من نشر المثنائى غير مطبوع ما نصه: إن عبيد مكناسة تبعوا المترجم للفتك به فلما نزلوا على عين اللوح أنزل الله المطر الكثير وأرياحا وبردا شديدا حتى كادوا أن يهلكوا، فرجعوا وقد خاب قصدهم.

وفى شوال أكثر أتباع مولاي عبد الله من البرابر الغارة على سايس وغيره من البلاد الموالية لبلاد البربر، ففر جميع من كان يلى البربر، فخلت جميع تلك البلاد، ثم شن البرابر الغارات على من يمر بالطرقات، وأكثروا النهب فى سائر البلاد التى يقدرّون على الوصول إليها، وقاموا بدعوة مولاي عبد الله فى جميع جبالهم واتخذهم بطانة له، وفى ذلك الوقت بدأ انتعاشهم، ولما رأى مولاي عبد الله فرار الناس من البربر نزل جبل غمره الموالى لبلاد سايس، وانقطعت الميرة على فاس الإدريسية من كل ناحية من غارات البربر على ما حولها، وحبس الله المطر عنها وعن حوزها فارتفعت الأسعار.

وفى رابع عشرى رمضان أقيمت صلاة الاستسقاء ببوعجول، وخطب مولاي حمدون الشريف الطاهري نائبا عن القاضى سيدى يعيش.

وفى الثامن والعشرين من ذى القعدة أقيمت صلاة الاستسقاء أيضا بباب الفتوح، وخطب الفقيه السيد أحمد الورزى، ثم أقيمت بباب الجيسة، وخطبها سيدى حمدون الشريف الطاهري.

وبالغد أقيمت صلاة الاستسقاء أيضا بباب الفتوح، وخطب سيدى حمدون المذكور.

وفى الثلاثين صليت بباب الفتوح، وخطبها الشريف المذكور.

وفى مهل ذى الحجة أقيمت صلاة الاستسقاء أيضا، وخطبها السيد أحمد الورزى المذكور.

وبالغد أقيمت صلاة الاستسقاء بوادى الزيتون، وخطبها سيدى بومدين بن سيدى أحمد الفاسى.

وبالغد أقيمت بباب الجيسة، وخطبها السيد أحمد الورزى.

وفى خامس ذى الحجة أقيمت بمصلى باب الفتوح، وخطب الورزى أيضا ولم ينزل المطر، وحينئذ اختل النظام وشاع الفساد وحصلت المجاعة العظيمة، ومات بالجوع من لا يحصى، وقل الإدام وانقطع اللحم.

ولم يزل الأمر فى شدة، وازدادت الفتن وفر الناس، فعند ذلك أتى القائد العباس بورمانة أكبر رؤساء جيش أبى عبد الله بن عريبة صنو المترجم وقال له: إن البربر عثوا، ولم يبق التفات للأمير، فخرج فى خيله ورجله ووقع قتال شديد بين جنود ابن عريبة والمترجم وأحزابه البربرية بسايس من الزوال إلى الاصفرار انجلى بهزيمة بورمانة وجموعه، وتركوا جميع مقوماتهم واستعداداتهم غنيمة، ولو أن الظلام حال بينهم وبين جنود المترجم لاستأصلوهم قتلا وأثخنوهم جرحا.

وقام عدة ثوار كل يدعو لنفسه ويحاول جر النار لقرصه والاستيلاء على ما بيد غيره، استولى الحوات على عبيد الرمل وبنى مالك وسفيان والطلق والخلط وما والى ذلك، واستولى الباشا أحمد الريفى على الفحص، وبلاد غمارة، وطنجة، والقصر وما حول ذلك من المعامل وعلى بلاد الريف وجبالها وقلاعها إلى ناحية كرسيف، واستولى القائد القلعى على بنى يازغة وما والاها.

أما المترجم فقد كان تحت سلطنته الصحراء، وسوس، ومراكش، والبربر، وقد نص التاريخ على أن هذه الفتن لم تكن فى هذه السنة بالمغرب فقط بل عمت سائر أقطار العالم.

ولما طال مقام صاحب الترجمة بين أظهر البربر ينتقل من أغوارها إلى النجود، والفتن قائمة على ساق، والقحط ضارب أطنابه، سار لتافيالالت وصار يتربص ما تنجلى به تلك الغياهب.

وفى رجب عام خمسين ومائة وألف: بلغ ثمن وسق القمح مائة مثقال، قال ابن إبراهيم الدكالى فى تقاييده: بعد أن كان فى الرخاء بخمسين أوقية والشعير

يقاربه، وكذلك الذرة حتى كاد أن ينقطع الطعام من فاس، وكان وزن الخبزة التى تباع بالسوق بموزونة خمس أواقى بالبقالى، وافتضح وجوه الناس وأعيانهم، وخلت المدينة وسدت حومات متعددة، مثل حومة الكدان، ودرب اللمطى، وحومة الأقواس، والبليدة، والطالعة، والدوح، وسدت الأسواق إلا القليل، وهدمت الديار وبيعت، ومات من الناس ما لا يعلمه إلا الله، حتى ذكر بعض الناس ممن أئق به أنه وصل للمارستان من الموتى فى رجب وشعبان ورمضان نحو الثمانين ألفا، فضلا عما لم يصل إليه وكانت الدار التى قيمتها عشرة (كذا) مائة مثقال تباع بثمانين مثقالا وسبعين ولا تبلغ المائة، وانجلى كثير من الناس عن المدينة وذهبوا إلى القصر، وتطاوين.

ومن ذهب بعياله لتطاوين العلامة سيدى محمد بن عبد السلام بنانى شارح الاكتفاء، واندثرت بسبب ذلك قبائل كثيرة من أهل فاس، ولولا أن النصرى أتوا بالزرع من بلادهم لتطاوين ونواحيها وجلبه أهل فاس لهلك الكل جوعا، وقد كان والى تلك البلاد أحمد بن عبد الله الريفى ذا إبل عديدة اكتراها منه أهل فاس لحمل ما اكتالوه من الميرة، قيل: إنه ساعدهم على الكراء ظاهرا، ومنع الحماليين من الحمل باطنا، وتمرد عليهم ستة أشهر حتى تحقق لديه أن أكثر العائلات الكبيرة الذين لا يقدرّون على التنقل لبلد آخر من قلة الزاد وكثرة أفراد العائلة ماتوا جوعا فسر بذلك باطنا، وساعدهم ظاهرا، ووصل الزرع لفاس، وانجلت الأزمة التى حصت منهم كل شىء، ولما أتى ركب الحجاج من طرابلس أتى معه بالقمح الكثير وانحط السعر ورحم الله عباده.

قال ابن إبراهيم فى تقاييده لدى تعرضه لهذه الأحداث ما لفظه: كان اللصوص يأتون ليلا لديار الناس ينهبونها ومن قام معهم يقتلونه ويأخذون جميع ما وجدوه، فكانوا يأتون لرأس الجنان والمخفية ومصمودة والطالعة والدوح وسوق

النخالين وباب السلسلة، وقد جاءوا مرة إلى سوق قيسارية البز وحصل للناس بسبب ذلك خوف عظيم، وهذا كله والسلطان بمكناس يعنى ولد عربية لم يلتفت للناس ولم يعبأ بما نزل بهم، وحيل بين الناس وبين اجتنهم بلمطة والمرج وغيرهما من أحواز المدينة، ولم يبق أحد يذهب لموضعه بالمرج إلا من اتخذ يدًا مع السياب.

وجاء لصوص من ناحية باب الفتوح للفندق الذى يقرب من مدرسة الوادى وأخذ منه قافلة كانت عزمت على السفر، فلما اجتمع أهل فاس وخرجوا إليهم وجدوهم قد ذهبوا بما أخذوه وذلك فى وسط النهار.

وفى هذه الأيام أغار الودايا على القصارين بوادى فاس ونهبوا ما عندهم من الثياب، ثم صار القصارون يخدمون الثياب بوادى مصمودة، فأخذها اللصوص أيضا، وكثر الخوف بسبب ذلك، وصار الناس يبيتون فى الشوارع التى هى مظنة مجيء اللصوص ليلا والأمر فى كل نفس يزيد اشتدادا.

وفى خامس عشر شعبان ذهب السياب إلى مدرسة الصفارين ليلا ونهبوا جميع ما كان بها، لأنها كانت خلت من أهلها وغلقت أبوابها وافتضحوا، وقام معهم الناس وقتلوا منهم السلاسى بباب المدرسة وباقى أصحابه هربوا، ومن الغد قتل بالموضع نفسه بورمضان الحيانى وتسعة من أصحابه بالموضع المذكور، وفى هذه الأيام جاءت قافلة من الغنم ونزلت بفندق التجارة قرب القرويين لعدم الأمن من غيره.

وفى سابع رمضان ضرب الأندلسيون المحتسب السيد محمد بن عبد السلام المحمودى بحومة البليدة قرب دار القائد السيد عبد المجيد بوطالب، ووقعت بسبب ذلك فتنة بين الأندلسيين واللمطيين ثم اصطلحوا ليلا بروضة مولانا إدريس، ووقع اتفاقهم على تقديم التاجلوتى على الأندلسيين، والحاج محمد برزوز على

اللمطين، وأحمد الغرناطى على أهل العدو، والسيد عبد المجيد بوطالب يكون الحاكم على الجميع ورضى الكل بذلك.

وفى ليلة الأحد الخامس من شوال جاء السياب لسوق قيسارية البر ونهبوا منها بعض الحوانيت.

وفى سادس شوال قتل سيدى محمد بن عبد الرحمن بن القاضى بجنانه المسمى باللب، قتله القطاع رحمه الله.

وفى ليلة الحادى عشر منه جاء السياب لدار الغزوانى الهزاز بشارع سويقة الذياب ونهبوها.

وفى ليلة الثانى عشر منه جاء السياب أيضا لدرب جنيارة ودخلوا على الحاج محمد برزوز بدار هنالك كان بها مع جماعة من أصحابه، فضربوه برصاصة ومات من الغد، وجرح من أصحابه مولاي أحمد بن إدريس العراقى، والشريف سيدى محمد بن المهدي بوطالب، وأحمد بن جلون، والتاودى ابن عبد الخالق بنانى، والحاج محمد عديل.

ومن الغد اجتمع أولاد برزوز وقتلوا محمد بن العربى الجزولى كبير حومة البليدة، لاتهمهم له بأنه هو الذى أدخل السياب على عمهم الحاج محمد.

وفى أواسط شعبان ذبح يحيى الشاوى ليلا وألقى بالبرادعيين.

وفى مهل ذى القعدة ذبح المحتسب سيدى محمد بن عبد السلام المحمودى قرب درب رطوانه، كان ذاهبا لداره بسيدى أحمد الشاوى ولم يدر من قتله.

ومن الغد وقعت بسبب ذلك فتنة بين الأندلسيين واللمطين ثم اصطلحوا.

وفى التاسع والعشرين من ذى الحجة جاء السياب لدار الراعى قرب ضريح سيدى محمد بن عباد، وأخذوا منها غنما وبقرا كثيرا، وضربوا الحاج محمد بن

عبد السلام قصارة برصاصة فمات من حينه هـ بنقل صاحب الدر المنتخب المستحسن .

وفى ترجمة أبى عبد الله محمد بوطالب من نشر المثنائى أنه لما نزلت بالناس مسغبة عام خمسين، احترف رؤساء الرماة بيع الزرع من البادية يمنعون المساكين من شرائه ويشترونه بما شاءوا، ويبخسون الناس أشياءهم، وإذا باعوا يبيعونه بما شاءوا، وكان من جملتهم رجل يقال له العمارى رئيس الرميعة والكدان والصفاح من بنى عمار أحد شعوب سكان زرهون ورد على فاس جده، فكان يسرح البقر حتى يحفى، فاشترى بقرًا لنفسه وكان يبيع الحليب بحانوت بالصفاح، وسكن بالكدان، ثم بعد ذلك اشترى الدار الأولى عن يمين الداخل لدرب خلوق، وكان يبيع اللبن، ثم ولده كذلك، إلى أن نزلت مسغبة عام خمسين، وترأس على أهل الكدان وجذبت البلاد ومات البقر ولم يبق حليب يباع، صار يبيع الزرع بسوق الكدان بالصفاح .

فاضطر مولاي على بن مولاي محمد بوطالب صاحب الترجمة إلى شراء ما يتقوت به، فقصده سوق الصفاح فجلس ينتظر ما يشتري، فإذا بتليس جاء من البادية فاشتراه العمارى بما شاء، ولم يقدر أحد من المساكين يشتريه بما ساومه به العمارى ولا يعطيه فيه السوم، فباعه للعمارى بما شاء بمدهم الذى أحدثوه .

ثم أتى تليس آخر من البادية فساومه للعمارى أيضا وأعطى فيه السوم فزاد عليه مولاي على الثالث وباعه له مالكة فأراد العمارى منعه من شرائه، فلم يتركه له مولاي على، فتسابا بينهما وتصارعا، فصرعه مولاي على فدخل العمارى إلى حانوته وأخذ كابوسا كان عنده مرصصا وخرجه فى مولاي على من خلفه وهو لا يشعر فخر ميتا فحمله بعض المومنين إلى داره، فقالت لهم أمه: لا ندفنه حتى نقتل قاتل ابنى، فقالوا لها: قتلناه فدفنوه من يومه فى روضة أبى غالب على .

ثم فى غده حمل السلاح الشرفاء الأدارسة وغيرهم وساروا إلى قتل العمارى وأهل الرميلى والصفاح والكدان الذين تعرضوا عليه ونصروه، فاقتتلوا وسلم الله الشرفاء من الجرح والقتل، وقتل العمارى وعدة من أنصاره، ثم افترقوا وكفوا، وهدنت الفتنة والمدينة، ثم سلط الله على أهل الرميلى والصفاح والكدان السارق بوزيان العبادى من أولاد عباد صفرو، ومعه جماعة من سراق إخوته والمزاوغة وبنى يازغة، فكان يأوى لحوز فاس ليلا ويدخل الديار وينهبهم، فخلت بذلك الحومات الثلاث المذكورة ولم يبق منهم إلا القليل، ورجعت تلك الديار بساتين وجنات.

ولم تزل نيران الفتن والأهوال فى توقد، وأمر ابن عريبة فى اختلال وانحلال، والدماء تراق، والأموال تؤكل بالباطل، والفوضى ضاربة أطنابها، ونفذ ما فى بيوت الأموال، وسدت أبواب الجبايات، وتعذرت المصالح العامة، ولم يوجد ما تدفع منه رواتب الجند وانقطعت عن الرؤساء وأولى العصابة مادة ما كانوا يستفيدونه من بيوت الأموال، والأمر فى كل يوم يزداد شدة، فاتفقت كلمة العبيد مع رئيسهم الخوات والبعض من الودايا والبربر على خلع ابن عريبة.

وفى صبيحة يوم الأربعاء التاسع والعشرين وقيل الرابع والعشرين من صفر العام أخرجوا ذلك من القول إلى الفعل، فأعلنوا بخلعه، ولم يقتصروا على الخلع، بل ألقوا عليه القبض وعقلوه بداره الواقعة على ضفة وادى يسلمن جوار حمرية التى لازالت معروفة إلى الآن خارج العاصمة المكناسية، والهرج والمرج والخلاف فى ازدياد، فرأى آيت عياش أن لا مخلص من ذلك إلا الرجوع لطاعة المترجم واستئناف البيعة له، فذهبوا إليه لتأفيلالت مقر سلفه فشرحوا إليه جميع ما حل بالرعية من الأحداث، وما أوصلها التنازع إليه من الفشل وذهاب الريح، وما آل إليه أمر صنوه ابن عريبة والمنازعين له من إخوته، وألحوا عليه فى القدوم معهم

للقيام بنصرته، فقابل مطلبهم بالرفض قائلا: لا غرض لكم إلا أن تجعلوني طريقا موصلة لإذاية المسلمين، والتوصل لأكل أموال العجزة والمستضعفين بالباطل وردهم بخفى حنين.

ثم بعد ذلك بدا للمترجم الرجوع إلى المغرب، فنهض من تافيلالت وسار إلى أن بلغ تادلا ثم آيت عتاب، فاجتمعت عليه قبائل تلك الناحية وهادوه واستبشروا بطلعته، وبقي هناك يستطلع أخبار فاس ومكناس وما والاها، ويبحث عن أحوال إخوته مع العبيد إلى أن تحقق لديه اجتماع الكلمة عليه.

واستؤنفت إليه البيعة فعلا على يد القائد بوعدة مولى الشربيل، وذلك يوم الاثنين الخامس عشر من ذى القعدة عام اثنين وخمسين على الأصح، وقيل يوم الجمعة، وهو يومئذ ببلاد السراغنة، ولما تم له الأمر وجه للمترجم فئة عظيمة من أعيان العبيد لإعلامه باستئناف البيعة له، ولما لحقوا به أنزلهم منزلة تجلة وإكرام، وأقاموا معه ببلاد السراغنة أياما، ثم أنهضهم لناحية سيدى رحال مع الباشا الزيانى ومكثوا ثمة بضعة أيام، ثم أصدر أوامره بحصار اكدير فأجابوا بالسمع والطاعة وصارت تفد عليه الوفود من سائر الأصقاع المغربية يطلبون عفوه وأمانه، فأمن الجميع وقابل بالعمو والإحسان.

وفى حادى عشر ذى الحجة منصرم العام أمر رؤساء العبيد أشرف فاس وعلماءها وأعيانها بالتوجه لتقديم الطاعة لصاحب الترجمة، فأجمعوا أمرهم من فاس أول عام ثلاثة وخمسين، ينتظم ذلك الوفد من القاضى أبى العباس أحمد بن على الشعراوى، والعلامة أبى عبد الله محمد الزيزى، وأبى حفص عمر بن إدريس الإدريسى، وصنوه المولى أحمد وابن عمهما أبى عبد الله محمد بن عبد الله المدعو الغالى، ونحو الأربعين من الرماة والأعيان فى طليعتهم شيخ ركب الحاج وهو الخياط عدیل ورؤساء العبيد والودايا.

وصاروا يظعنون ويقيمون إلى أن وصلوا للحضرة السلطانية، فأنزلهم منزلة تجلة وإكرام، ثم أحضرهم لديه ووجه اللوم على ما صدر منهم على الفقهاء، فاعتذر الكل بأنهم مرغمون على ذلك ممن لهم السلطة الاستبدادية من عبيد وودايا، فقال لهم ما قاله الصديق نبي الله لإخوته: لا تثريب عليكم فيما جنيتهم، وعين عبد الله الحمري عاملا على فاس، ورد الجميع رداً جميلاً.

ثم استقدم العبيد بأجمعهم لحضرته، ولما قدموا عليه جمع جيوشا عديدة من القبائل الحوزية، ثم عقد الرياسة على الجميع للقائد الباشا الزياني، ووصل الجميع وأوصى بالعدل والإحسان والبر والتقوى، ووجههم لحصار آكدير إلى أن يدخل أهله فيما دخلت فيه الجماعة فساروا إلى أن وصلوا لسيدي رحال إلى أن لحق آخرهم بأولهم، ثم نهضوا يطوون المراحل إلى أن خيموا على حصن آكدير، ولم يزالوا محاصرين له إلى أن فتحوه عنوة في سابع ربيع الثاني من العام واستولوا على جميع ما كان به.

وفي عاشر ربيع المذكور، وقعت ملحمة عظيمة بين الجيوش السلطانية والقبائل الحوزية مراكش ودكالة والرحامنة وزمران ومن انضاف إليهم من الأعراب والبرابر، كان الظفر أولا للجيش السلطاني ولكنهم أضاعوا الأخذ بالحزم ونبذوا الاحتياطات اللازمة وراءهم ظهريا، واشتغلوا بالنزاع على الغنيمة، حتى أتاهم من خلفهم المولى المنتصر بنور الله شقيق المستضىء بنور الله وحال بينهم وبين الأثقال والأخبية، وحاز الكل غنيمة باردة ورجع من حيث أتى.

أما الجيش السلطاني فإن منه من لحق بصاحب الترجمة، ومنهم من بقى بأكدير حتى يصدر إليه الأمر العالى بما يكون عليه عملهم، وقد كان من بقى من عبيد مشرع الرمل بمحل استيطانه من المشرع المذكور أنهضوا منهم جيشا ثانيا رأسه الباشا بوعزة مولى الشربيل، وتوجه للحضرة السلطانية ليكون ردفا للأول، وسار

إلى أن بلغ لبلاد تامسنا وأقام هنالك حتى تلاحق المتأخر بالمتقدم، ثم نهضوا وساروا إلى أن خيموا بتساوت، وأقاموا هنالك إلى أن لحق بهم المترجم فى فاتح ربيع الثانى فى جنود جرارة، واطمأن بعضهم لبعض، ونشطوا للقتال، واستعدوا للنزال، أخذًا بثأر إخوتهم.

ثم نهض بهم المترجم إلى ناحية وادى تانسيفت، فوجد صنوه أبا النصر قد حال بجنوده الحوزية بينه وبين الماء، ولما التقى الجمعان ببوكر كور وتسعرت نيران القتال وحمل الوطيس تقدم الباشا بوعزة المذكور وقد كان على الميمنة للطعن والنزال، واقتفى أثره ابن النوينى وقد كان على الميسرة، ثم تبعهما صاحب الترجمة، وكان القلب والساقة، وكان انجلاء الملحمة بانهزام أبى النصر وأحزابه شر هزيمة، وذلك يوم الخميس فاتح جمادى الأولى من العام، ثم نزل المترجم على الماء واقتفى الباشا بوعزة أثر المنهزمين، إلى أن نزل على رأس العين، ومن الغد رجع إلى المحال السلطانية، وأقام المترجم بزواية ابن ساسى نحو سبعة عشر يوما.

وفى يوم الأربعاء متم جمادى الأولى من العام كانت وقعة كبيرة بـ(منزات) حضرها صنو المترجم المستضىء بنور الله بنفسه، وكانت الكرة عليه، فاعتصم هو وشيعته بجبال مسفيوة، ولولا ذلك لداستهم حوافر الجنود السلطانية، ولما أيقن المترجم بفشلهم وذهاب ريحهم أقلع عنهم وتوجه إلى دكالة فحصد جنوده منها كل شىء وأقام بها نحوًا من شهر.

وفى آخر جمادى الثانية أقلع عنهم ووجهته مكناسة الزيتون مقر عرش والده، وكان وصوله إليها فى منتصف رجب العام، وخيم بباب الريح خارج البلد، ولم يزل مخيما هنالك والوفود تفد عليه بالهدايا والبيعات من سائر الأقطار المغربية من عرب وبربر، وهو يقابل كلا بما يليق ويصله على قدر حيثيته ومكانته،

وكم قضى لخاصتهم والعامة من مآرب ومطالب ووالى من إحسان إلى أن رجع الكل لوطنه لاهجا مثنيا شاكرا.

قال أبو عبد الله الضعيف: إلى هنا انتهى تأليف الفقيه المؤرخ الحاج عبد الكريم بن موسى الريفى الذى سماه بزهر الأكم، قال رحمه الله: وهنا انتهى بنا هذا التأليف، وقد قيل فى بعض الكلام، من قعدت به نكاية الأيام، أقامته إغاثة الكرام، والبقاء والدوام، للملك العلام هـ.

ولم يتخلف أحد عن البيعة وتقديم الطاعة غير زعيم الريف الباشا أحمد بن على ومن هو تحت سيطرته لتمرده وشقه عصا الطاعة.

وكان سبب عدم دخول المترجم لدار الملك ما كان صدر من أخيه المستضىء من التزوج ببعض نسائه، ولذلك ألقى القبض على قاضى البلد أبى القاسم بن سعيد العميرى، والقاضى أبى العباس أحمد بن على الشدادى، والعلامة أبى الفضل العباس بن الحسن بن رحال المعدانى، وأبى العباس أحمد بن عبد الله التملى، وأبى الحسن على الندرومى خليفة القاضى العميرى المذكور، وأغلظ لهم فى القول وقرع ووبخ على موافقتهم لأخيه المستضىء على التزوج بزوجاته، وكان ذلك فى يوم الخميس حادى عشرى رجب المذكور، وعزل الخطباء الذين كانوا يخطبون باسم أخيه المستضىء.

ثم بنى دويرة لسكناه بباب الريح، ولما تم العمل فيها سكنها بمن كان معه من الحرم، ووظف على أهل البلد وظائف أثقلت كواهلهم، ولما بلغت زروعهم أوان الحصاد أطلق أيدى الجيوش فيها، ولما ضاق بهم الخناق وبلغ بهم الجهد متناه عفا عنهم وأحلم وصفح فاطمأنت النفوس، وزال عنهم ما كانوا فيه من شدة

وبوس، وأنجح الله لهم الأسباب وصلاح الزرع والضرع وتوالت الأمطار، وانحطت الأسعار، وتبدل عسرهم يسرا.

وفى أوائل المحرم فاتح عام أربعة وخمسين نزل بفاس، وولى عليها الحاج عبد الخالق عدیل شيخ ركب الحاج، وأمره بتأخير كل خطيب خطب بصنوه المستضىء، وكان عدیل المذكور ذا ثبات ورسوخ عقل فقال له: يا مولاي هذا من وظيف القاضي، وحسبي شد عضده فيه، فولى قضاء فاس أبا يعقوب يوسف بوحنان وأمره بما أمر به عدیل فعزل السيد بوعزة المشاط عن خطبة مسجد الأندلس وولى مكانه الفقيه أبا عبد الله محمد الزيزي، وعزل أبا حفص عمر بن عبد الله الفاسي عن خطبة باب الجيسة وولى مكانه أبا عبد الله محمد السلوي، والشيخ التاودي بن سودة عن خطبة مدرسة الطالعة وولى مكانه أبا العباس أحمد الحارثي الدلائي، وأبا الحسن على التوزاني عن خطبة جامع القصبة البالية بباب المحروق وولى مكانه أبا العباس الشامي.

وولى قضاء تازا الفقيه أبا محمد عبد الواحد بوحنان، وأمره بعزل من هنالك من الخطباء للسبب المذكور، ولما كان في أثناء الطريق لمحل مأموريته اعترضه اللصوص وسلبوه من كل ما كان معه، وتوفى بعد وصوله لتازا قبل قضاء ما أمر به.

وفى صبيحة يوم الثلاثاء تاسع عشرى محرم أتى اللصوص لفندق النخالين من فاس ونهبوه.

وفى أواخر صفر جاءوا لسوق البز ونهبوا منه دكانين.

وفى العام سلط الله الفار على الزرع والقطنى والبحائر والفواكه الخريفية فى سائر البلاد.

وفى العام نفسه اختط المترجم دار الديبىغ الشهيرة بضواحي فاس، وفيه بعث القائد محمد الكعيدى اليازغى كبير أهل الديوان لجباية الأموال المترتبة بدمم الحياينة وغيرهم، فقتله الحياينة مع من كان معه من الأصحاب بالموضع المعروف بعين مديونة، وذلك فى ثانى عشرى ذى الحجة منصرم العام.

وفى اليوم نفسه اتصل بالمترجم وهو يومئذ بفاس خروج الباشا أحمد بن على الريفى من طنجة ووجهته القصر الكبير فى استعداد زائد، فأنهض لمقاومته وصدّه عن القصر جيشا جرارا من عبيد الرمل وذهب هو للعاصمة المكناسية، فخان القواد ومن فى قلبه مرض ولحقوا بالريفى المذكور ورجع الباقون إلى مكناس وانحل الأمر، ولما نزل القواد الخائنون ومن فى حكمهم إلى الريفى، أكرم مثاهم ونزلهم ووصلهم واقترح عليهم الكتب لإخوانهم الذين بمشرع الرمل بالقدوم عليهم لديه، ونكث بيعة صاحب الترجمة، ووعدهم على ذلك بمال جزيل.

واتفق أن كان ذلك غب زمن المسغبة، فأسعفوا رغبته، ووجهوا لإخوانهم يستقدمونهم، فوجدوهم ارتحلوا لمكناسة لما لحقهم من عيث جيرانهم سفيان وبنى مالك وبنى حسن والبربر، ولما حلوا بمكناسة تطاولوا على أهلها وضيقوا بهم أشد التضييق، واستباحوا الأموال والأعراض، ونزعوا عن وجوههم جلباب الحياء، حتى انجلى عن البلاد كثير من أهلها وتفرقوا فى البلاد، ولم يقتصر العبيد على أذى أهل المدينة بل مدوا يد الطغيان والظلم والتعدى فى ما جاورها وعثوا فى السابلة، ولما اشتعلت نيران الفتن وعجز المترجم عن رتق ما انفتق، جمع عياله وماله ووجه بذلك لفاس، وكان وصوله إليها ضحى يوم الخميس الموفى ثلاثين من ربيع الأول على الأصح، واجتمع رأى أهل النقض والإبرام على خلع المترجم لعجزه عن الدفاع، والمبايعة لصنوه زين العابدين سابق الترجمة، وقد كان عند الباشا أحمد الريفى.

ولما اتصل هذا النبأ بالريفى المذكور وكان من أشد الناس عداوة لصاحب الترجمة، بادر للإعلان بنصر زين العابدين وتبعه على ذلك من كان معه من العبيد، وطيروا الكتب لإخوانهم الذين بمكناس بتعجيل رفض بيعة المترجم من أعناقهم، والبيعة لصنوه المذكور.

ولما وصلت إليهم تلك الرسائل ارتأوا أنه لا يتم لهم أمر إلا بموافقة الودايا وأهل فاس معهم على ذلك، فكتبوا لهم بشرح ما أصاب الناس من الضيق والخرج بتراكم الأهوال والفتن، ورغبوا منهم الدخول معهم فيما راموه وأبرموه، فأجابوهم برفض ذلك المطلب وإلغائه محتجين بأن بيعة المترجم فى أعناقهم لا يبيح لهم الشرع خلع ربقتها.

وفى ثانى ربيع الثانى خيم المترجم بدار الدبيغ الشهيرة خارج فاس، حيث المدينة الجديدة اليوم، فاستقبله الودايا وأهل فاس وشرح لهم ما تحقق لديه مما أضمره العبيد له فأجابوه بأنه لا سبيل لرفض بيعته، وأن طاعته لازمة لهم.

ثم انتصر حزب العبيد وأعلنوا بخلع صاحب الترجمة والبيعة لصنوه زين العابدين، وذلك يوم الأربعاء تاسع عشرى ربيع، فكانت دولة المترجم فى هذه المرة من اليوم الذى بويع فيه وهو الخامس عشر من ذى القعدة عام اثنين وخمسين إلى اليوم الذى خلع فيه وهو الأربعاء تاسع عشرى ربيع من عام أربع وخمسين، عاما واحدا وأربعة عشر يوما وهى الدولة الثالثة له.

وفى ثالث عشر رمضان عام أربعة وخمسين ومائة وألف، أعلن العبيد بخلع زين العابدين مار الترجمة، واستئناف البيعة لصنوه المترجم، وهو يومئذ بالقبائل البربرية، وبويع له بالعاصمة المكناسية بمحضر الشرفاء والعبيد والأعيان، وتمت له

البيعة العامة حيث إن البربر والودايا وأهل فاس والعرب كانوا لازالوا متمسكين ببيعته ببواطنهم، وإن اضطروهم العبيد على التظاهر بالطاعة لزين العابدين.

ولما اتصل هذا النبأ بالمرجم قدم لمكناس، ووفد عليه أربعمائة من العبيد يطلبون عفوه وأمانه فأمنهم وقابل جنائتهم بالصفح، واستقر بمكناس أياما، ثم بدا له النهوض لفاس، ولما نزل بداره المعروفة خارج المدينة بدار الديبيع خرج لاستقباله الأشراف والوجهاء وذوو المناصب العالية فرحين مستبشرين، وتسابقت الفرسان على الصافنات الجياد أمامه إظهاراً لما خامرهم من السرور، وسدت الأسواق.

ثم صارت الوفود تفد على جلالته لتقديم الطاعة وإظهار الخضوع، فأوسعهم برا وحلما، ونقل من دار أبيه لداره المذكورة كل ما له قيمة من ذخائر وأثاث، فكبر ذلك على العبيد، ولم يرضوه وطلبوا منه الرجوع عن ذلك، وأن لا يتمادى على إكمال بناء تلك الدار لتيقنهم أنه إن تم بناؤها وسكن بها اعصوب عليهم، وخرج من ربة استبدادهم، فلم يلتفت إليهم، فهددوه بالخروج عليه، فلم يرفع لهم رأسا.

ولما علم بذلك الباشا أحمد الريفى اتخذ فرصة، وكتب لعبيد مكناس قائلا: إن الأمر صار لغيركم ولم يبق لكم أمان على أنفسكم، وإن المترجم لم يبق تحت يده مال، والمالك لا يقوم إلا بالمال، فقوموا على ساق فى خلعه وتبديد جموعه وأحزابه، ولكم من المال ما تحتاجون إليه، وها صنوه المستضىء بمراكش وقد بايعه أهلها فاتبعوهم، وأعلنوا بنصره، فأجمعوا أمرهم على ذلك وفعلوا، فوجهوا للمستضىء يستقدمونه.

وفى ذى القعدة بلغ المترجم ما صمم عليه العبيد مما أوعز لهم به الريفى، فاشتغل بتأليف القبائل المتمسكة بطاعته وحالفهم على المدافعة عنه ومحاربة أصداده والموت دونه، وإثر ذلك ورد على فاس من مراكش الحاج أحمد السوسى داعية المستضىء ينشر دعوته ويرجف الناس ويعظم شوكته، فأصدر صاحب الترجمة أمره بقتله قصاصاً، فقتل واستصفيت أمواله، واستؤصل ما كان بداره.

وفى أول المحرم عام خمسة وخمسين دخل المستضىء مكناسة فى عساكره العبيد، وبأثر ذلك ورد كتاب الريفى المذكور على أهل فاس يدعوهم لبيعة المستضىء، فأجابوه بالرفض وصمموا على نصرة المترجم ومقاومة كل من ناوأه والموت دونه، وتعاهدوا بإصلاح المعازل والصقائل، وجعلوا لباب محروق أحد أبواب المدينة أبواباً من ساج مغشاة بالحديد.

وفى يوم الثلاثاء رابع عشرى ربيع الأول خيم المستضىء بجند العبيد بظهر الزاوية، وفر المترجم للقبائل للانتصار بهم، ونزل على آيت يدراسن، ولما كان الغد الذى هو يوم الأربعاء وقع قتال شديد بين المستضىء وأهل فاس ومن انضم إليهم من الحيانية وشراقة وأولاد جامع، مات فى المعركة من الودايا نحو اثنى عشر رجلاً، ومن أهل فاس نحو الستة، ومن العبيد نحو الستين.

وفى يوم الجمعة رابع ربيع الثانى رجع السلطان عبد الله صاحب الترجمة فى جيوش جراءة ذات قوة وبأس شديد من البرابر بنى مطير وجروان وآيت يوسى وآيت أدراسن وزمور وآيت ومالو وغيرهم، وجلب بهم على أحزاب صنوه المستضىء، ولما اتقى الجمعان علم المستضىء أنه لا قبل له بمقاومة تلك الجنود البربرية المجندة، فنجأ هو وأتباعه بأنفسهم بعد عشاء يوم السبت خامس ربيع الثانى، وعصم الله بمحض فضله دماء المسلمين.

وفى العام عم الطاعون بالمغرب وخصوصا بفاس ومكناس ونواحيهما وانحبست الأمطار، وارتفعت الأسعار، وفشا الجوع فى القرى والأمصار، وتفرق أهل فاس فى البلاد كالقصر ووزان والعرائش وتطاوين وطنجة. قال أبو عبد الله الضعيف: حكى لى من أثق به من أهل القصر أن صبيان أهل فاس كانوا يتكففون بأبواب الدور والأزقة.

وفى جمادى الأخيرة وقعت فتنة بين الحاج عبد الخالق عدیل، وأبى عبد الله محمد الغالى الشريف الإدريسى، فرفع عدیل الشكاية بالشريف لصاحب الترجمة فأصدر الأمر بإلقاء القبض عليه، ففر واستجار بضريح جده أبى العلاء إدريس الأزهر بن إدريس الأكبر، فضيق عليه إلى أن خرج وضرب ووبخ وسجن وقتل أنصاره لسعيهم فى الأرض الفساد.

وفى يوم الخميس سابع عشرى رجب سرح المترجم أبا عبد الله محمد الغالى الشريف الإدريسى، ولما علم بذلك أهل فاس تحزبوا وخرجوا لباب محروق بقصد قتل الشريف المذكور إن رام النزول لفاس القرويين، فأوعز بعض الناس بذلك للإدريسى المذكور فسكن فاسا الجديد.

وفى العام وجه المترجم مع ركب الحاج ثلاثة وعشرين مصحفا كلها محلاة بالذهب مرصعة بنفيس الدر والياقوت، منها المصحف الكبير العقبانى المنسوب لعقبة بن نافع الفهري الذى كان الملوك يتوارثونه من عهد بنى أمية بالأندلس، ونقل إلى المغرب على يد عبد المؤمن الموحدى، ثم انتقل إلى بنى مرين، ثم وقع بيد الأشراف السعديين، ولم يزل يتداول إلى أن وقع بيد المترجم ووجه معه بألفى حصاة من الياقوت المختلف الألوان العزيز الوجود وسبعمائة حصاة هدية للحجرة النبوية.

وفى العام توالى الأمطار حتى هدم قوس من أقواس قنطرة وادى سبو، واستهلك السيول كثيراً من الماشية وأقلعت الأشجار.

وفى السنة ثار العبيد على قبيلة سفيان وبنى مالك وأوقعوا بهم شر وقعة، واستحوذوا على كل ما أمكنهم الاستحواذ عليه من مال ومتمول ورجعوا لمحالهم، وبعد أيام قلائل نهضوا لناحية الفحص لمحاربة الباشا المذكور مخيماً بجنوده، ولما التقى الجمع انهمز العبيد بعد أن تركوا إخوانهم صرعى طعمة للعقبان والذئاب، ورجع الريفى لمقره بطنجة.

وفى أوائل المحرم عام ستة وخمسين ومائة وألف، نهض الباشا أحمد الريفى بخمسين ألف مقاتل أو يزيدون لمحاربة المترجم، ونزل على وزان بقصبة ازجن من بلاد مصمودة، وكان الإبان إبان مطر، فحبس به هنالك نحو الشهر، وشرفاء وزان قائمون بكل ما يلزمه من مئونة وعلف ودواب وسائر اللوازم.

وفى عشية يوم الثلاثاء ثانى عشرى محرم المذكور نزل الباشا المذكور بجموعه المتكاثفة بالعسال من مزارع فاس من ناحية قنطرة سبو، فناوشه القتال بعض القبائل، ثم ورد عليه جند من العبيد معززين له، وانضم إليه من القبائل الجبلية نحو الخمسة عشر ألف رجل، ثم لحق به متبوعه المستضىء وأتباعه من عبيد الرمل وتازا ومكناس وبنى حسن، وكان الحيانة وشراقة وأولاد جامع جاءوا لتحسين فاس، ونصرة صاحب الترجمة لما علموا بمقدم الريفى ومتبوعه، ونزلوا بحللهم باجنتها وأحدقوا بها من كل جهاتها، وتوجه المترجم فى عشرة من أتباعه لآيت أدراسن يستصرخهم ويستنصر بهم ويعرفهم بمقاصد الريفى، فأجابوه لما أراد، ووجهوا لحلفائهم من آيت ومالوا وبنى حكم وزمور وكروان يستنهضونهم ورجع المترجم من حينه لداره دار الديبغ.

ثم لحقت القبائل البربرية المذكورة بمحال الريفي والمستضىء، وذلك يوم الخميس ثانی عشرى صفر الخير من العام، ولما أقبلوا عليهم صاحوا وحملوا عليهم وحكموا فيهم سيوفهم وهزموهم شر هزيمة لم يسمع بمثلها، حتى إن عدداً عديداً منهم رموا بنفوسهم فى الوادى فغرقوا، واستولت جنود المترجم على جميع ما كان بمخيمهم من مال وعدة وكراع، وقد كان الأمير أبو عبد الله محمد نجل المترجم حاضراً بهذه المعركة، وكان عدد من قتل من جند المستضىء والريفي ثمانمائة، ورجع الريفي لمقره طنجة وقام على ساق فى تجديد الاستعداد رجاء الأخذ بالثأر، وأقسم ألا يأكل لحماً ولا يشرب لبناً إلا إذا احتل فاساً وجاس خلال خيم أولئك البرابر.

ولما كان أول جمادى الثانية من العام نهض من طنجة ووجهته فاس، ولما اتصل الخبر بصاحب الترجمة طير الإعلام لأنصاره من القبائل البربرية وغيرهم، ثم نهض من فاس فى مهل جمادى الأخيرة وخيم بوادى سبو، وهناك استعرض جنوده وعساكره ورتبها أحسن ترتيب، فجعل رماة أهل فاس مع خاصته وعبيده، ورماة العبيد مع بوعزة صاحب الشربيل، والودايا وزرارة وأهل سوس مع ولده أبى عبد الله الأمير محمد، وآيت يدراسن وجروان فى رماة حاجبه القائد عبد الله اليمورى، وشراقة وأولاد جامع وأولاد عيسى فى رماة قائدهم أحمد بن موسى الشركى.

وسار على هذه الحال إلى أن قرب من مخيم المحال الريفية، ولما علم الريفي أن المترجم بات على مقربة من مخيمه ارتحل بجنده وسار إلى أن أقبل على وادى لوكس، ورأى جيوش المترجم بدار العباس على ضفة الوادى المذكور مقبلة فاستقلها ونزل وأمر أتباعه بالنزول، ولما رأى المترجم اشتغال محال الريفي بالنزول

نادى فى عساكره لا نزول إلا بغنيمة أو هزيمة، فأجابوه بالسمع والطاعة، وانقضوا على المحال الريفية انقضاى البزاة فولوا الأدبار منهزمين، وتركوا جثتهم وأشلأهم مبعثرة بالهضاب والسهول من بينهم جثة الزعيم الريفى فقطع رأسه وأتى به للمترجم، وذلك صبيحة يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الثانية من العام، ووجه برأسه لفاس فطيف به بالأسواق، ثم علق بيباب محروق، ولم يزل معلقا هنالك إلى أن قدم على المترجم أولاد أبى زيد عبد الرحمن الثعالبى من الجزائر متشفعين للمترجم فى إنزاله، فشفعهم وأصدر أوامره المطاعة بإنزاله، ووجه القاضى إذ ذاك عدلين لمشاهدة إنزاله وتسليمه للمتشفعين فيه، فذهبا - أى العدلان - وهما العلامة خطيب المدرسة العنانية من طالعة فاس أبو عبد الله الحارثى الدلائى والعلامة المفتى الشيخ أويس، وكتبت بذلك وثيقة من إنشاء أبى عبد الله محمد بن علال وإليك نصها:

الحمد لله الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، العفو الذى يحب العفو حتى لا يهتك الستر ولا يؤخذ بالجريمات، الذى من كمال عفوه ورحمته ومنته أن وعد بالجنة التى أعدت للمتقين، للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أحلم رسول أرسله، المأمور بإعطاء من حرمه، وإيصال من قطعه والعفو عمن ظلمه، بقوله فى الكتاب المبين ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وعلى أصحابه وأنصاره وأحزابه وآله البالغين الغاية فى اتباعه، واقتفاء اتباع أتباعه .

وبعد: فعن الأمر المطاع، الذى يجب له الانقياد والاتباع، والإذن الشريف العلوى، السلطانى المولوى، أمر مولانا أمير المؤمنين، المحفوف من الله تعالى بالنصر والتمكين، فخر الملوك والأشراف، وظل الله على الأقوياء والضعاف، خليفة الله فى أرضه، وأمين الله على جنده بطوله وعرضه، المعتمد فى أموره على

مولاه الذى ولاه، أبو محمد مولانا عبد الله، أيد الله أوامره، وظفر بمنه جنوده وعساكره، عاين شهيداه ظهيره الأسمى، وطابعه الشريف الأئمى، بيد حملته السيد فلان، والسيد فلان، بقبول شفاعتهما فى رأس أحمد الريفى المخالف أمر السلطان وصحبه كتاب لخليفته الأسعد، وركن إيالته الأرشد، خديم المقام المولوى، وشيخ الركب النبوى، القائم بأمر مولانا المنصور، المضاعف له فى الثواب والأجور، فى سعيه الصالح، ومتجره الرابع، التاجر الجليل، الحاج عبد الخالق عدیل، المتضمن عفو مولانا نصره الله وأيد أمره وخلد فى صفحات الدهر مآثره الشريفة، وأوامره عن رأس خديم إيالته الشريفة، وعتباته المنيفة، الباشا أحمد بن على بن عبد الله الريفى، من إنزاله من شرفات باب الشريعة من فاس، أمنها الله من كل باس، ودفعه لحملة الظهير الشريف، العالى القدر المنيف.

ففعّل العامل المذكور ما أمر به امتثالاً للأمر الشريف السعيد، المحفوف من الله تعالى بالنصر والتأييد، والعز المديد، ودفع لمن ذكر بمحضر شهيديه ومعايتتهما لما سطر، فمن عاين ذلك كما قرر، وشهد على من ذكر كما حرر، وهم عارفون قدره وعرفهم فى يوم السبت السابع عشر من شوال عام ستة وخمسين ومائة وألف، والله تعالى يحسن عاقبة الجميع فى يوم البعث والنشور هـ.

هذا ولما مات الريفى ومزقت أشلاء أحزابه كل ممزق استولى المترجم على البقية الباقية من معسكره، ثم قدم عليه أهل تلك الجبال والخلط وطليق وغيرهم لتقديم الطاعة وطلب العفو والأمان، فعفا عفو قادر، وبعد ذلك توجه لطنجة وألقى القبض على خاصة الريفى وعماله، واستصفى أموالهم، ووجه القائد عبد الخالق عدیل وجماعة من أهل فاس لحيازة ما بدار أحمد الريفى المذكور، وأمر أهل الريف بالإتيان بما له عندهم من ماشية وغيرها، ولما جمع ذلك وأحصى فرقه فيمن كان معه من البرابر، وكان نحو الأربعة آلاف وأقام المترجم بجنوده بطنجة أربعين يوماً.

أما المستضىء فإنه لما علم بموت عضده الأيمن وساعده المساعد أحمد الريفى، أغرى من معه من العبيد وبنى حسن على الأخذ بثأر إخوانهم واستئناف قتال صنوه المترجم، وقطع خط الرجعة بينه وبين فاس، فأجابوه لذلك.

وأطلق عيونه لترقب حركات المترجم وسكناته وإعلامه بظعنه ومقامه، فكانت تأتیه بتفاصيل ذلك، ولما بلغه أن صاحب الترجمة خيم بدار العباس التى كانت بها تلك المعركة التى قضت على جموعه بالدمار والخذلان، ركب فى أتباعه من العبيد وبنى حسن، وصبح المترجم على حين غفلة، ولما التقى الجمعان ولى المستضىء وجنوده الأدبار. وانكسروا أى انكسار، مات من خصوص بنى حسن ما يزيد على الألف، وسلب لهم من عتاق الخيل والسلاح ما يزيد على الخمسة آلاف، ومات من العبيد نحو الخمسين.

وبعد الهزيمة فر القائد حسن فنيش هاربا، وهو أخو الباشا عبد الحق فنيش عامل سلا، فلقى فى ذهابه أحد قواد عبيد الرمل كان مصاحبا له وقد مات له فرسه فى المعركة، فطلب من القائد الحسن أن يردفه فأردفه لسابقة الصحبة، ثم غدر العبد به وأكبه على رأسه وشد وثاقه وأقسم له يمينا بالله إن لم يسر أمامه حتى يقتله، فسار به إلى أن أوصله لصاحب الترجمة ولما مثل بين يدي المترجم، قال له: أنت يا فنيش من علوج أبى إسماعيل ووالدك كذلك، فلم تركت خدمتى وأخذتك الغيرة على الحمار ابن الحمار؟ فقال له فنيش: أعتقنى وأنا أعطيك عشرين قنطاراً فقلع المترجم عشة من الأرض، وقال له: هذه العشة عندى أفضل من مالك، وأنشد متمثلا بقول القائل:

إن الأسود أسود الغيل همتهما يوم الكريهة فى المسلوب لا السلب

وضربه بمزراقه فقتله، وذلك بوادى الدزاز من وزان.

ثم نهض المترجم وسار إلى أن حل بفاس مؤيداً منصوراً، فكسا وفرق الجوائز، وعمم الصلات بدار الدبيغ إلى ربيع الثانى من عام سبعة وخمسين، فقدم عليه رءوس العبيد وقوادهم ببيعتهم له وإعلامهم بخلع المستضىء، خاضعين معتذرين طالبين عفوه وصفحه عما اقترفوه.

فعفا وصفح على عادته ووصلهم، وأمرهم بالتهيؤ لقتال بغاة بنى حسن ومن فى حلفهم من شيعة المستضىء كدكالة أخواله وأهل مراكز المتمسكين بطاعته سعيًا وراء جمع الكلمة وإطفاء نيران الفتن التى حصت كل شىء، فأجابوه بالامتثال والسمع، وأمرهم باللحوق به لدار ملك أبيه مكناسة الزيتون، وأصدر أوامره للحياينة وشراقة وأولاد جامع وأهل فاس والغرب بالإتيان إليه بحركتهم لأجل ما ذكر.

ثم نهض لمكناس وبها اجتمعت عليه تلك القبائل، ووفدت إليه الوفود ببيعاتها وبعد تجديد البيعة العامة له وهى البيعة الخامسة، كتب الكتائب وجند الجنود، ورتب الجيوش، ونظم المقاتلة، ونهض قاصداً بنى حسن على طريق الفج ليحول بينهم وبين الشباب التى يتحصنون بها.

قيل: كان نهوضه فى ذى القعدة الحرام من العام، وسار إلى أن وافاهم ببسيط زبيدة، ففروا أمامه للغابة، وخلفوا حللهم وأموالهم غنيمة باردة، وما كان مساء اليوم حتى جاءوا تائبين منيين، فعفا عنهم ورد عليهم مالهم وارتحل عنهم.

وسار إلى أن نزل بداره من القصبة الكائنة بأبى لعوان بين الشاوية ودكالة، وخيمت عساكره أمامه ببسيط دكالة، وقد كان أهلها فروا مع المستضىء للحوز، فأقام المترجم بدكالة سنة كاملة بعساكره، أتى فيها على ما لتلك القبيلة من زرع وضرع، وقطعت أشجارها وهدت قراها ومداشرها وصيرها بلاقع كأن لم تغن بالأمس.

ثم انتقل لبلاد السراغنة، وما استقر به الثوى بتلك البلاد حتى وفد عليه أهلها طائعين وفى عفوه راغبين، وانضموا لجيوشه، ثم وثب البعض من السراغنة على ستة من صعاليك العبيد وقتلوهم لارتكاب عار وذعر.

ولما اتصل الخبر بصاحب الترجمة أسرع للانتقام من غير فحص عن السبب، فقتل منهم عددا كبيرا، ونهض من بلادهم مغاضبا، ثم وفد عليه دمناث وما والاها من سهل وجبل طائعين مذعنين، ثم انتقل لبلاد زمران وأعلام النصر خافقة، ولما حل بها قدم عليه الرحامنة وأهل سوس والدير وقدموا لجلالته الطاعة وانضموا بمحالهم لمحلته.

ثم تقدمت تلك الجنود الجرارة لبلاد مسفيوة، حيث كان المستضىء وأحزابه، وشبت نيران القتال بين جيوش المترجم وأهل مسفيوة ومن انضم إليهم إلى أن فشلوا، وفلت جموعهم وضعفت البقية الباقية عن المقاومة، فأتوا للمترجم بنسائهم وصبيانهم حاملين الألواح والمصاحف يستجيرون، ولما مثلوا بين يديه طلبوا من جلالته المقابلة بما جبل عليه من الحلم والإغضاء، فأمرهم بالإتيان بالمستضىء، فأخبروه بأنه قد فرّ لمراكش، فعفا وسامح، ثم ورد عليه أهل دكالة بنسائهم وصبيانهم كمن قبلهم، فقابلهم بالصفح وأمرهم بالرجوع لبلادهم، وألقى عصاه واستقر به الثوى إلى أن وفد عليه أهل الدير بيعتهم وهداياهم، وطلب الرحامنة وأهل سوس من جلالته المسير معهم لمراكش فأسعف رغبتهم.

أما المستضىء فإنه لما فر من مسفيوة لمراكش صده عنها أهلها، ولم يزل يتردد بين القبائل ولا يقابل بغير الطرد إلى أن بلغ الفحص وأقام بحوز طنجة كما مر.

وبينما يقدم رجلا ويؤخر أخرى فى التوجه لمراكش، إذ ورد عليه أعيانها وشرفاؤها بيعتهم، وقدموا لحضرته طاعتهم وأبدوا أعذارا عما تورطوا فيه من شق عصا الطاعة، وطلبوا من جلالته القدوم لبلادهم، وقد كان جل تلك الجيوش سئم

الحرب وكل ومل من الغربية وفراق أوطانهم نحو العامين، فصاروا يتسللون حتى لم يبق بالمحال إلا نحو النصف من الجيش ورؤساء القبائل، فرأى المترجم أن رأى هو أن يرجع لعاصمة ملكه ودافع الراغبين فى التوجه لمراكش بالتى هى أحسن، وعين ولده الأمير أبا عبد الله خليفة بها، ووجه به إليها فى معية وفدهم وذلك عام ثمان وخمسين ومائة وألف.

ثم ولى وجهه نحو العاصمة، وكان مروره على تادلا وأقام بها أياما، ثم سار إلى أن بلغ لرباط الفتاح، واستخلف به ولده أبا العباس أحمد، ثم سار إلى أن خيم بقصبة وادى أبى فكران وذلك فى خامس عشر ربيع الثانى عام تسعة وخمسين ومائة وألف على ما فى الترجمان العرب وغيره، والذى فى تاريخ الضعيف أن المترجم دخل مكناسة الزيتون أوائل ربيع الأول والله أعلم.

وفى مهل جمادى الأولى خرج من الحضرة الفاسية وجهاء البلد من العلماء وذوى المناصب لتهنئته بسلامة القدوم وتقديم ما يجب لجلالته، فسر بمقدمهم وقابلهم بكل تجلة وإكبار، ووصلهم وأكرم وفادتهم، ثم ودعهم وأمرهم بالأوبة لوطنهم، ووجه معهم الرماة الذين كانوا معه.

ووفد على حضرته أيضا قائد طنجة ووجهائها وأولاد الباشا أحمد المذكور ونسأؤه بهدية سنوية وتحف نفيسة، وكان عدد الوافدين يتجاوز المائة، ولما مثلوا بين يديه قال لهم: إنه قد بلغنى أنكم استخرجتم مالا كثيرا كان أخفاه الباشا أحمد عند خروجه ثانى مرة لمبارزتى واقتسمتموه فيما بينكم، وأمرهم بشرح الواقع فأجابته سبعة منهم بالإقرار، والباقي بصريح الإنكار، فأمر بزج الجميع بالسجن، وبعد ثلاث سرح السبعة المقرين، وهم: العاقل، وأولاد الباشا، وبنو عمهم وأمر بقتل المنكرين فقتلوا جميعا، وفى ذلك اليوم نفسه قتل من بنى حسن وغيرهم نحو ثلاثمائة نسمة.

ثم وجه نفرا من حاشيته لطنجة للإتيان بمال الريفى المذكور، فقام فى وجوهم أهل طنجة وصدوهم وشتموهم أقبح شتم، بل هموا بالإيقاع بهم لولا أنهم نجوا بأنفسهم، ولما رجعوا للمترجم وأخبروه الخبر ثار غضبه، وأمر بقتل من كان أبقى عليه من أهل طنجة المذكورين.

وبعد ما نفذ الأمر فيهم أخبر صاحب الترجمة أن المال الذى كان قد أخرج من طنجة وأمنه عند عدل بفاس صرف منه فى مصالح نفسه عددًا لا يستهان به، فأصدر أوامره بالإتيان بذلك المال، ولما أحضر أمر بوزنه فأخبر من باشر الوزن بأنه يخص من العدد المؤمن اثنان وثلاثون ألف قنطار عدة قديمة، فألزم عدل بأداء العدة فعجز، وضمنه بعض الرؤساء ووقع عليه الإشهاد بالأداء حلولا، وأمر بإعطاء عشرة آلاف مثقال صلة للودايا، سكان فاس الجديد، فكان من أقوى موجبات وغر صدر أهل فاس على صاحب الترجمة، حيث خص الودايا بالعطية دونهم، والحال أنهم - أى الودايا - أول من شق العصا عليه، وهم - أى أهل فاس - أول من تمسك بطاعته وآخر من قاتل دونه.

ومما زاد الطين بلة وطنبور الفتى نغمة أمره للمسخرين من جيشه بأكل زرع ما حرثه آيت يدراسن أنصاره بأحواز العاصمة المكناسية انتقاما منهم لتأخرهم عن الإتيان لحضرته للتهنئة بسلامة القدوم، وبعد ذلك كتب الرئيس القبيل المذكور محمد وعزيز يلومه عن التأخر، وقد كانت بينه وبينه صداقة ومصافاة تامة، حتى كان صاحب الترجمة لا يخاطبه إلا بياأبت، وكل ما يرومه يمضيه بدون أدنى توقف.

ولما وصل الكتاب السلطانى لوعزيز جمع إخوانه وأمرهم بجمع هدية والإتيان إليه بها ليتوجه بها مع وجوهم للحضرة السلطانية، فأظهروا الامتناع وتعللوا بالخوف على أنفسهم إن هم ذهبوا لعدم توقفه فى سفك دماء الواردين

عليه، فتكفل لهم بأنهم لا يرون منه إلا ما يسرهم، وأنهم ليسوا كغيرهم بناء على ما يعتقد من كامل الصداقة، وأنه يستحيل لديه أن تخفر له ذمة عند الأمير المترجم، فأجابوه لما اقترح، وعينوا مائة من صدورهم للتوجه مع رئيسهم المذكور، وساروا بهديتهم إلى أن وصلوا لمخيم السلطان بقصبة أبي فكران، واستقبلوا حاجبه عبد الوهاب اليمورى.

فأخبر السلطان بمقدمهم فأمر بإدخالهم لبساطه مجردين من السلاح، ولما مثلوا بين يديه أحدق بهم لفيفا من الحرس ثم قال لمحمد وعزيز هؤلاء حادوا عن الطريق المثلى، وعاثوا فى الطرقات وروعوا المسلمين بالسلب والنهب، وأخذوا أموال التجار غصبا ولم يتركوا ضعيفا ولا يتيما ولا مسكينا إلا وآذوه فى ماله وبدنه، فإذن مالهم ودمهم حلال.

وأمر الحرس بإلقاء القبض على جميعهم غير وعزيز فانقض الحرس عليهم وأوثقوهم بالحبال وساروا بهم إلى بطون السجون، فقال له وعزيز: أغدراً بعد عهد! فقد جاءوا فى أمان.

فأجابه المترجم بقوله: هؤلاء حاربوا الله ورسوله، وسعوا فى الأرض الفساد، وقد خير الله فيهم الإمام، فقم أنت فى حفظ الله لأنك بمنزلة والدى لا تخاف دركا ولا تخشى، فقال له: لا أقوم إلا مع إخوانى، فإن ماتوا مت، وإن عاشوا عشت، وكيف يسمع عنى أنى قدمتهم للذبح ورجعت! فأى أرض تقلنى وأى سماء تظلنى؟ لا بد أن يقتلنى إخوانهم وأخلف بعدى سبة لا تنفى مدى الأبد، وقد تنبئوا بهذا لما أمرتهم بالقدوم معى لحضرتك، فقالوا: إن ذهبنا إليه سلك بنا مسلك من قبلنا من الوافدين عليه، فنفيت لهم ذلك، وأعطيهم العهود والمواثيق على أنهم لا يقابلون من جلالتك إلا بالجميل ووافر الإحسان.

فأطرق مليا ثم رفع رأسه وقال لحاجبه المذكور: يا عبد الوهاب لا خير فى رجل يقول لرجل: يا أبت، ثم لا يشفعه فى قبيلته، وأمر بتسريحهم فسرخوا، ولما خرجوا ركبوا خيولهم وتوجهوا لحللهم مع رئيسهم وعزيز.

ولما اجتمعوا بإخوانهم قالوا لهم: لقد أحيانا الله حياة جديدة بعد أن متنا فلا بُدَّ لنا من الأخذ بثأرنا مادام فينا عرق ينبض، وأجمعوا أمرهم على الخروج على المترجم والهجوم عليه بعد ثلاث، ومن تخلف منا عادينا، وبأنواع الأذى والإهانة سمناه، فلم يشعر المترجم إلا وخيولهم مطلة عليه من ناحية الحاجب، فتيقن أن ذلك أمر دبر ليل، ولم يسعه غير حمل عياله وجواريه وإحاطتهم بالخيول والرماة، ثم ركب هو فى من بقى معه من الجند وانحدر خلفهم مع بطن الوادى وتفرق العبيد يمين الوادى ويساره، وتركوا كل ما كان بالمحلة من أمتعة وأخبية وعدة ومقومات غنيمة باردة، وشب القتال بين البربر والمحال السلطانية وحمى الوطيس ودام ذلك إلى أن دخل المترجم على باب القزدير أحد أبواب العاصمة المكناسية، فرجع البربر وقد مات منهم خمسمائة مقاتل، ومن العبيد ثلاثمائة وذلك يوم الخميس سابع شعبان العام.

ثم اتفقت كلمة العرب على الخروج على المترجم، ووافقهم على ذلك شيخ العرب محمد الحبيب المالكى الحمادى، وقد كان صاحب الترجمة ولاء على إخوانه سفيان وبنى مالك والخلط وطلق وغيرهم من عرب تلك الناحية، ثم بعثوا إلى أهل فاس يحثونهم على متابعتهم فى رفض بيعه المترجم فأجابوهم لذلك، ثم اجتمع رأى العبيد على الانضمام لهؤلاء وكتبوا لإخوانهم يغرونهم على الانخراط فى سلوكهم والموافقة معهم على ما أبرموا، وحققوا لهم غدر المترجم ووثوبه عليهم إن لم يربثوا بأنفسهم ويغتنموا الفرصة قبل الظفر بهم، ولما اتصل كتاب العبيد

بإخوانهم وتمعنوه تواعدوا على الرحيل لمكناسة بعد ثلاث إجابة لإخوانهم، وفرارا مما لحقهم من إهانة بنى حسن وإضرارهم بهم غاية الإضرار.

فأخبر السلطان بذلك بعض عيونه، وعندما تيقن صدق الخبر طير الإعلام لأخواله الودايا الذين بفاس يحضهم على القدوم عليه من يومهم قبل بلوغ السيل الزبى، واتساع الخرق على المرتق، واشتغل بجمع ماله وأثاثه وحمل ما عز عليه وأسراج خيله مظهرا أنه يريد الرجوع لقصبة أبى فكران حيث كان مخيمه، ولما كان وقت العشاء ورد عليه من خيل أخواله الودايا أربعمائة، فخرج من باب القزدير بجمع ماله وعياله ولم يترك بدار الملك غير النزر مما لا يؤبه به، وسار فى معيتهم إلى أن بلغ دار ادبيغ.

وفى ثالث عشر شعبان اجتمع البربر مع بنى مالك بفاس لقتال الودايا، فتحصنوا بالمدينة البيضاء فاس الجديد، ثم عاث البرابر فى الطرقات ونهبوا دار ادبيغ، وقلعوا أبوابها وحرقوا الأخصاص التى كانت محدقة بها، وجعلوا يغيرون على سرح الودايا ويناوشونهم القتال، ومات من الفريقين عدد عديد، وشبت نيران الفتنة وقطع الودايا الماء على فاس القرويين.

وفى يوم الجمعة الخامس عشر من شعبان المذكور وقع التوافق على أن لا يذكر اسم المترجم فى الخطب، واشتبكت الفتنة وارتبكت وكثر الهرج والمرج، وامتد ذلك نحواً من سبعة وعشرين شهرا.

وفى أوائل رمضان أخلى العبيد مشرع الرمل، وبقيت بيوتهم خاوية بما ظلموا، ولما لحقوا بإخوانهم لمكناسة، نزلوا بالقصبة والمدينة والأروى وقصبتى بريمة وهدراش، وبعضهم اتخذ الأخصاص والعرائش بضواحي المدينة والرحاب المتسعة وثنوا هنالك فى البلاد، وخرب بنو حسن ما خلف العبيد بمشرع الرمل من الدور والقصور التى كانوا يتنافسون فى تشييدها.

ولما وافى عيد الفطر وجه العبيد الذين بمكناسة جماعة من قوادهم فى معية قاضى البلد أبى القاسم العميرى ووجوه الأشراف لحضور العيد مع المترجم والاعتذار عما صدر منهم، وطلب رجوع جنابه إلى عاصمة الملك مكناس.

ولما وصلوا لحضرته ومثلوا بين يديه قابلهم بالعفو والإغضاء، ووصلهم وكساهم ووعدهم بتوجهه للعاصمة المذكورة، فانقلبوا إلى مقارهم فرحين مبتهجين، ولما كانوا فى أثناء طريقهم لمكناس اعترضهم البرابر بوادى الجديدة وسلبوهم حتى مما يستر عوراتهم، ولم يفلتوا منهم غير القاضى المذكور أبقوا عليه ثيابه وبغلته.

ثم صارت البرابر تغير على الذين نزلوا بضواحي مكناس وتنهب أموالهم وأولادهم حتى ضاق بهم المتسع، وتفرقوا فى البلاد، ولم يبق منهم إلا القواد وشرذمة من أهل الحرف والصنائع، ومات منهم بالزلزال الذى وقع بمكناس خمسة آلاف.

وفى فاتح جمادى الأولى عام ستين قدم قبائل البربر وقبائل العرب لإعانة أهل فاس على محاربة المترجم فنزل القائد الحبيب بإيالته الغرب والخلط، وطلق بدار الأضياف، ونزل محمد واعزيز بأتباعه البرابر بجبل أطغات، وانحجر الودايا بفاس الجديد، والعييد بقصبة شراقة، وأحاطوا بالمترجم بداره دار الديبيغ إحاطة السوار بالمعصم.

ولما كان الغد ركب العبيد والعرب وقصدوا دار الديبيغ والبربر على آثارهم، فلما بلغوا حريم الدار المذكورة اتصل بهم أن البربر غدروا ونهبوا محلتهم فارتاعوا ورجعوا القهقرى منهزمين لا يلوى بعضهم على بعض، وتفرقت تلك الجموع الباغية، وكفى الله المؤمنين القتال، قيل: إن المترجم أغرى واعزيز بمال وجهه إليه ليلا على تفريق تلك الأحزاب ففعل، وسقط فى يد أهل فاس وبقوا يتجرعون الغصص فى ضيق وعناء يستغيثون فلا يغاثون.

وفى انقلاب عرب الغرب من انكسارهم هذا لبلادهم مروا بحلة بنى حسن فانتهبوها، فقدم بنو حسن على السلطان شاكين إليه بما فعله بهم عرب الغرب فحركوا منه ما كان كامناً بصدرة عليهم، وجيش إليهم جيشاً كثيفاً من العبيد والودايا للإيقاع بهم أخذاً لثأر بنى حسن منهم، ولما شعروا بنهوض الجيوش التى لا قبل لهم بها للاقتصاص منهم انجلوا عن البلاد وتوجهوا للعرائش وتحصنوا بأسوارها، فاقتفت أثرهم تلك الجيوش وأحدثت بهم وشددت الحصار عليهم ثلاثة أشهر، هلك فيها لهم الزرع والضرع ثم رق لهم المترجم ووجه لهم شرذمة من الودايا بأمانه ومصحفه وسبحته، وأفرج الجيش عنهم، وقدموا مع الودايا على المترجم بهداياهم تائبين، ولفضله شاكرين، فولى عليهم كبيرهم الحبيب المالكى، وأضاف إليه قبائل الجبل كلها.

وفى شوال عام واحد وستين ومائة وألف، استأنف أهل فاس الرضوخ لطاعة المترجم وتجديد البيعة له، وذلك بواسطة بعض بنى عمه من أهل سجلماسة، والعلامة أبى الإجلال عبد الكبير السرخينى، فأنهضوا وفداً من الأشراف والعلماء وذوى الجاه والوجاهة فى طليعتهم الفقيه المذكور ومعهم هدية قيمة للعاصمة المكناسية إظهاراً للخضوع، وطلبوا فى العفو والصفح، ولما مثلوا بين يدى المترجم سب وجدع ثم سامح وأحلم وردهم لبلدهم رداً جميلاً، ثم انعقد الصلح بين أهل فاس والودايا، وفتحت أبواب المدينة بعد الحصار سنتين وثلاثة أشهر، وكان ذلك فى ذى القعدة من السنة.

وفى هذه الأعوام انتشر الوباء الجارف فى هذه السنين سائر البلاد المغربية وتفاحش الغلاء.

وفى ثامن عشر جمادى الأولى، وقيل الثانية من العام، نهض المترجم من فاس لمكناسة، لكسر شوكة متمردة البربر وخيم بقصبة أبى فكران ينتظر ورود

القبائل التى كانت تظهر له الطاعة، إذ قد كان استنهضهم لذلك، ولما طال انتظاره وتبين تقاعسهم عن الحقوق به، رجع للعاصمة المكناسية بمن كان معه مصابا بألم إحدى عينيه.

ولما سمع البربر برجوعه لمكناس طمعوا فيه، وأجمعوا على غزوه، وزاد طنبورهم نغمة وطنهم بلة، ما وقع من الصلح بين الودايا وأهل فاس وذلك يوم الاثنين الثالث عشر من شوال، وخضوع الكل لصاحب الترجمة، فلم يألوا جهدا فى تفريق الكلمة واستشاروا فى التدابير الموصلة لهم لذلك زعيمهم واعزيز لما يعلمون فى قلبه من المرض، فأشار عليهم بأنه لا يتم لهم معه أمر ماداموا لم يقطعوا خط الرجعة بسايس، ويحال بينه - أى المترجم - وبين الموالين له من الودايا والعبيد وأهل فاس، فاستصوبوا رأيه ونزلوا بحللهم فى تلك البسائط، وأطلقوا يد السلب والنهب، وأغاروا على سرح الودايا وأفسدوا زروعهم وبحائرهم، وجعلوا يختطفون أطفال العبيد النازلين بضواحي مكناس ويغيرون على سرحهم كلما أمكنتهم فرصة.

وفى أول رجب من السنة ورد الخبر بإلقاء أهل الريف القبض على المستضىء مار الترجمة، واستيلائهم على كل ما كان له من مال ومتمول لإلقائه القبض على القائد عبد الكريم بن على الريفى صنو أحمد المذكور، وسمله عينه.

وفى شعبان أوقد الودايا النار بأجواف باب محروق ليلا، فشعر بذلك الحرس وطردهم عن الباب، ومن الغد ركبوا له أبوابا جددا.

وفى ثالث عشرى شوال أوفد أهل فاس على المترجم بمكناس القائد الحسن ابن صالح الليرنى، والقائد قاسم بن الأشهب، والقائد الحاج محمد الصفار، وقاضى البلد وغيرهم من الأشراف والعلماء، وكان ذهابهم على طريق زرهون خوفا من عيث عتاة البرابر، ولما وصلوا لحضرته ومثلوا بين يديه شرحوا أعذارهم

فى التظاهر بالقيام عليه، وأقاموا الحجج والبراهين على أن ذلك لم يكن عن اختيار منهم، فقبل المذرة شأن الكرام، وقال: لا تثريب عليكم، وإنى عاهدت الله أن لا أفعل بأهل تلك المدينة - يعنى فاسا - إلا الخير وكتب بهذا كتابا لأهل فاس.

وفى متم الشهر آب الوفد الفاسى لوطنه فرحا مسرورا، وقرئ الكتاب السلطانى المشار له على منبر القرويين، وبه وقع الإعلان باستئناف بيعته، وانبرم الصلح بينهم وبين الودايا، وتبادلوا الطعام بالمدينة البيضاء وفاس القديمة، وزينت المدينة إظهاراً للارتياح، وإشهارا لما أقاموه من حفلات الأفراح.

وفى ثالث عشرى قعدة قدم ركب الحجيج الذى كان محصورا بتازا لانقطاع السابلة وتوقد نيران الفتن بها.

وفى يوم السبت تاسع ذى الحجة خرج من فاس وفد من أعيانها لتهنئة جلالة المترجم بغرة عيد الأضحى والمشاركة فى أفراحه ومشاهدة فاخر حفلاته، من جملة أعيان ذلك الوفد: القائد قاسم بن الأشهب، والقائد ابن صالح الليرينى، والحاج محمد الصفار، والقاضى أبو محمد عبد القادر بوخريص، وناظر الأحباس التاودى بن أحمد المشاط، فقابلهم بغاية الإجلال وغمرهم بنعمه الضافية، وردهم بعد يومين ردا جميلا.

ثم إن البربر لما علموا بانبرام الصلح بين أهل فاس والمترجم والودايا والعبيد سقط فى أيديهم، ورأوا أنهم قد ضلوا وصاروا يضربون أحماسا فى أسداس، ويبدلون جهدهم وطاقتهم فى اتخاذ الحيل فى تفريق الكلمة، ولا سيما لما ثبت لديهم أن العبيد صمموا على الحركة لغزوهم، وأخذوا يغرون القبائل على نصرتهم على ذلك ومعاضدتهم، فلم ير البربر حيلة أنفع لهم من المسارعة لشن الغارات والتضييق على العبيد من كل جهة وقطع الميرة عنهم، ومديد السلب والنهب فى

السبل عموماً والعبيد خصوصاً، حتى ضاق بهم المتسع فلم ينفعهم إلا الجنوح للسلم ومصالحة البربر، وبعد اتخاذ الوسائط لذلك صرح لهم البربر بأن السلطان هو الأمر لهم بذلك، فلم يرتب العبيد في صدق مقال البربر لما سلف من المترجم مع واعزيز عند تخلفهم عنه حين أمرهم بغزو البربر، وصاروا يدبرون في كيفية يتوصلون بها لإلقاء القبض على صاحب الترجمة والفتك به، فأوعز إليه بذلك بعض عيونه، ففجأ بنفسه لدار الديبغ وذلك في صفر سنة اثنتين وستين.

ثم اتصل الخبر بنجمله خليفته بمراكش أبي عبد الله محمد مار الترجمة فكتب للعبيد يعلمهم بصيرورته على بال، مما أضرروا لوالده، ويعدد عليهم إحسانه إليهم ويوعدهم إن لم يرجعوا عما سولت لهم أنفسهم الأمانة، فأجابوه بتنفيذ ذلك الخبر، وأنه لم يكن خطر لهم قط ببال، ورجعوا إلى أنفسهم، وقالوا: إن هذا الخليفة - يعنون محمد بن عبد الله - ذو قوة وبأس شديد، وهو أماننا، ووالده وراءنا، والبرابر محدقة بنا، فكيف الخلاص؟ فاتفق رأيهم على أن يعيدوا البيعة لصنو المترجم أبي عبد الله ابن عربية المترجم سابقاً فأبى وامتنع، ثم بعثوا لصنوه أبي الحسن على أتى الترجمة وكان يومئذ بسجلماسة مهد ملك سلفه فقابل طلبهم بالرفض، ولما كانت نتيجة سعيهم فيما راموه الخيبة عقدوا صلحاً مع البرابر على المبايعة لنجل المترجم أبي عبد الله المذكور، وأقاموا لهم حججاً على أنه لا يصلح للملك وتدبير أمور الرعية غيره فأجابوهم لذلك.

وفي أوائل ربيع الأول أعلن العبيد والبرابر بنصر أبي عبد الله المذكور بمكناس وزرهون وخطبوا به على المنابر، وأشاعوا ذلك في البوادي والخواضر، ثم جهزوا فئة من أعيانهم وأوفدوها إليه لمراكش لإعلامه بجمع الكلمة على المبايعة له وطلب تعجيل قدومه عليهم، ولما بلغوا إليه وأبلغوه ما جاءوا لأجله قبح فعلهم وعنفهم ثم وصلهم، وقال لهم: ارجعوا عن غيكم فإن بيعة والدي في عنقي وأعناقكم لا يحل خلعها بحال، وألزمهم الرجوع للطاعة والتزم لهم بأن لا

يلحقهم أذى سوء من والده، وأنه يسعى فى إصلاح ذات البين بينهم وبينه، فرجعوا آيسين من بلوغ مقصدهم، ولم يرجعوا عن غيهم بل تبادوا على الدعاية لسيدي محمد والخطبة به، والمترجم مستعير لذلك كله آذانا صما وعيوناً عمياً، وولده الخليفة المذكور يرجف فؤاده من ذلك خوفاً من أن يظن به والده أنه راض بفعل أولئك الأوغاد الجفأة، وصار يتابع الهدايا ذات البال لوالده استجلاباً لمرضاته، وإظهاراً لطاعته، ولما تيقن صاحب الترجمة كراهية نجله المذكور لسوء فعل العبيد ورفضه لمطلبهم، رام استجلاب القلوب الشاردة عنه، فصار يفكر فى ما يوصله لذلك.

ولما كان يوم الخميس تاسع عشر شعبان العام أمر بإعلان النداء بسوق الخميس وغيره من أسواق فاس، بأن كل من أتى إليه من العبيد لدار ادبيغ يعطى خمسمائة مثقال، ومن تخلف فلا يلوم إلا نفسه، فتساقطوا على أعتابه زرافات ووحدانا ووفاهم بما وعد به، وأمرهم بالكتب لإخوانهم الذين بمكناس وغيرها من البلاد بالإتيان لحضرته، وأن كل من أتى يقبض القدر المذكور تأليفاً لهم وكفاً لأنفسهم، فلم يزددهم ذلك إلا نفورا وتمرداً وطغياناً، شأن النفوس الخبيثة، ولم يقتصروا فى ذلك على أنفسهم، بل أغروا البرابر النازلين بسايس على قتل كل من وجدوه من إخوانهم ذاهباً لفاس، لأنه يعد ناكثاً للعهد الذى تعاهدوا عليه، وخارقاً لإجماع جموعهم الفاسدة.

فأجمع البرابر أمرهم وشركاءهم ودرسوا الحالة هم عليها وحالة العبيد معهم قديماً وحديثاً، وما جنوه من ثمار ما زرعوه من الفتن، فتمحض لديهم أن العبيد إنما يسعون وراء ما رأوه مصلحة شخصية لهم، ولو أدى الحال إلى تضحية من سواهم، وأن أكد مصالحهم هلاك البربر.

واتفق رأيهم على الرجوع لطاعة المترجم وعضدهم فى رأيهم الأسد رئيسهم محمد واعزيز، ثم كتبوا للمترجم يطلبون عفوه وأمانه فأجابهم بقبول إنابتهم وعدم

مؤاخذتهم طبق ما عرف فى غالب أحواله، وبأثر ذلك وفد محمد واعزيز مع إخوته، فأكرم وفادتهم ووصلهم بعشرة آلاف مثقال، فسروا وابتهجوا ورجعوا لمحالهم شاكرين.

وفى آخر رمضان رجعوا لحضور الحفلات العيدية ومشاهدة الطلعة الإمامية، فوصلهم بمثل ما ذكر كما وصل الودايا، وأعطى لأهل فاس خيلا مسومة وجواهر نفيسة وأوانى من الزجاج، وكساهم بفاخر الثياب، قال فى الدر المنتخب: تزيد قيمة ما ذكر على عشرة آلاف مثقال بتقويم ذوى العرفان، ولم يحرم من نواله المدرار غير العبيد الذين جبلوا على كفران النعم.

وفى هذه السنة جمع رأس عتاة العبيد، وشيطانهم المريد، المسمى زعبول إخوانه الذين بمكناس ونواحيه ونهض بهم لسفيان وبني مالك، ولما رأى المذكورون ما لا قبل لهم به، فروا إلى العرائش، فاحتوى الزعيم وإخوته على ما خلفه سفيان وبنو مالك من ماشية وغيرها، وفى منقلبهم دخلوا القصر على حين غفلة من أهله، وارتكبوا كل شنيع على عادة الأوغاد السفلى، وكان الوقت وقت اشتداد البرد وتهطل الأمطار فعظم الخطب واشتد المصاب.

وفى السنة أيضا قتل المولى الحسن صنو المترجم أولاد أخيه المولى يوسف، وتسبب فى خراب دار ابن أخيه مولاي الشريف بن زين العابدين إرضاء لأهل تافيلالت أعدائهم، فدخلوا الدار عنوة وقتلوا أهلها صبورا ظلما وعدوانا.

وفىها أيضا هجمت شرذمة من دخيسة وذوى منيع وعرب الصباح وآيت عطا، على تافالالت، فنهبوا الأموال وسبوا النساء والأطفال، وقتلوا عدداً عديداً من أهلها، وسلبوا تجار أهل فاس القاطنين هنالك من أموالهم، وذلك من نتائج ما فعله الحسن المذكور بأبناء أخيه، ولم يزل الحسن ثائرا بتلك البلاد إلى أن صار الأمر للأمير أبى عبد الله محمد بن عبد الله ونقله لمكناسة وذلك آخر العهد به.

وفى أوائل جمادى الأولى عام ١١٦٣ ضحى يوم الاثنين قدم من الحضرة المراكشية الخليفة السلطانى أبو عبد الله محمد إلى مكناس، وخيم بأبى زكرياء الصبان، ومن الغد دخل البلد، وزار ضريح جده المولى إسماعيل، وقد وجد العبيد لازالوا على انحرافهم عن والده، متمادين على الخطبة به، فتبرأ من سوء فعلهم وقرعهم أشد التقريع، وأمر بإحضار العلماء والأعيان لديه وقال لهم: هؤلاء العبيد بايعونى وبغوا على والدى السلطان، وإنى أشهدكم أننى أبرأ إلى الله مما أجرموه، فهل ترون لهم مندوحة فيما ارتكبوه، فأجابوه جميعاً بأن الخروج على السلطان لا يحل، وأن دم مرتكبه حل.

ولما سمع العبيد جواب العلماء ورأوا قوة الخليفة وخافوا شدة بطشه لم يسعهم إلا الرجوع لطاعة المترجم وأنفهم صاغر، وأعلنوا بنصره فى الأسواق والأزقة، ولاذوا بالخليفة فى الشفاعة لهم لدى والده الإمام والاعتذار له عما اقترفوه، والوساطة لهم فى أن لا يحرمهم من نواله، فأجابهم لذلك، وتكفل لهم به.

ثم كتب لوالده بشرح الواقع وطلب الإذن له فى القدوم بهم لحضرته، وأعلمه بأنه أمنهم بأمانه فيرجو ألا يخفر له فيهم ذمة فلم يرد له والده جواباً عن الكتاب، فأعاد الكتابة ثانية فأذن له فى القدوم بهم لحضرته، وواعده بأنهم لا يرون إلا ما يسرهم ويرضيه هو فيهم.

وفى يوم الأربعاء الثانى والعشرين من جمادى الأولى هذه قدم الفقيه السيد على بن زيد من عند الفقيه السيد على وهو الباشا بتونس على السلطان المترجم بهدية سنية، يطلب منه عددا من الخيل سماه، ففرح به وأعطاه ستة من إناث الخيل قيمتها ثمانمائة مثقال، وأعطاه خنجرا مرصعا بالياقوت مختلف الألوان لا تعلم قيمته.

وفى يوم الأحد الحادى عشر من جمادى الثانية وصل الخليفة سيدى محمد المذكور بمن فى معيته من العبيد والجند الذى أتى به من مراکش، وكان نحو أربعة آلاف جندى لحضرة والده بدار ديبغ، ووجد والده فى موكبه وأهل فاس والودايا فى استقباله، ولما مثل بين يدى والده ترجل وأدى التحية اللائقة بعلى مقامه، وقدم إليه هدية ثمينة، وقدم العبيد، وطلب لهم عفوه وأمانه، فعفا وأمن، وكان ذلك اليوم من أيام الأفراح المشهودة، وأقام الخليفة مع والده ثلاثة أيام يذاكره فى أمور ولايته، وأحوال رعيته.

ولما كان صباح يوم الأربعاء ودع والده وطلب رضاه وصالح دعائه، ونهض من دار ديبغ وخيم برأس الماء بجنوده الحرارة، ومن الغد نهض وخيم بوادى النجا، وفى يوم الجمعة السادس عشر من الشهر دخل الحضرة المكناسية.

هكذا فى الدر المنتخب، وفى الترجمان وغيره أن والده ودعه من حينه وأمره بالانصراف لمكناس خوفا من اغتيال البربر، فامتل ولم يبت إلا بوادى النجا، ثم سار لمحل مأموريته، وكان وصله إليه فى ثامن عشرى شوال، وتلقاه أهل الهدايا بالرايات والطبول، وأظهروا بقدومه غاية الارتياح، وقدموا لحضرته هدايا ذات بال.

وفى العام فشا الوباء وانتشر، ودفن بفاس فى يوم واحد ما يزيد على أربعمئة نسمة، واشتد الأمر وحبس المطر، حتى كررت صلاة الاستسقاء ست عشرة مرة.

قال ابن إبراهيم: فى يوم الجمعة الرابع عشر من صفر خرج الناس للاستسقاء باب الفتوح فصلوها، وإمامهم خطيب القرويين أبو مدين الفاسى. وفى يوم الأحد أعيدت الصلاة بالمحل والإمام الخطيب المذكور.

وفى يوم الثلاثاء بعده صليت صلاة الاستسقاء، والإمام خطيب المقام
الإدريسى الفقيه، الناسك الشيخ الكبير ابن الغزوانى السرخينى .

وفى يوم الخميس بعده خرج الناس لصلاة الاستسقاء، وإمامهم العدل سيدى
أحمد الطاهرى الجوطى الحسنى .

وفى يوم السبت الموالى أعيدت الصلاة خارج باب الفتوح أيضا، والإمام
خطيب القرويين كذلك .

وفى يوم الاثنين ثانى ربيع الأول أعيدت الصلاة خارج باب الجيسة بإمامة
الخطيب المذكور .

وأعيدت أيضا فى يوم الخميس بعده بإزاء روضة ابن عباد، والإمام من ذكر .
وفى يوم الثلاثاء الموالى له أقيمت داخل باب الفتوح قرب باب الحمراء
بإمامة الخطيب المذكور .

وفى يوم الأحد خامس عشر ربيع المذكور أعيدت الصلاة بالمحل المذكور
وإمامها من ذكر .

وبإمامته أيضا أعيدت من الغد بالمحل نفسه .

وفى يوم الخميس أعيدت طبق ما ذكر .

وكذلك أعيدت من غده .

وفى يوم السبت ثامن عشرى الشهر استدعى المترجم لدار دبيغ وأعطاهم
مائة بندقة وست عشرة بندقة وثمانية مئاقيل لكل فرد .

وفى يوم الاثنين متم ربيع أعاد الإمام المذكور صلاة الاستسقاء خارج باب
الفتوح قرب ضريح الشيخ دراس بن إسماعيل .

وفى يوم الأربعاء ثانى ربيع الثانى أعاد الإمام المذكور الصلاة بالمحل نفسه .
وفى يوم الأحد المتصل الولاء أعاد الإمام المذكور الصلاة بالمحل المعروف بمطرح
الأجلة خارج باب الفتوح .

وفى يوم الأحد أعيدت الصلاة بعد ، ولم ينزل المطر إلا فى شهر إبريل آخر
العام ، ونزلت معه أحجار بلغ وزن بعضها نصف كيلو ، ودام ذلك نحو الساعتين ،
وتكاثرت السيول وفاضت الأودية وتهدمت الدور وقلعت الأشجار ، وتعطلت
السبل ، وارتفعت الأسعار ، وبلغ القمح خمس موزونات للصاع النبوى ، وأكل
الناس الجيف والنبات .

وفى محرم فاتح عام أربعة وستين ، وجه صاحب مراكش لوالده هدية ثمينة
مع بعض الخاصة من أصحابه فتلقاها بيمنى القبول ، ودعا له بالرضا والخلف ،
ووجه له مع الهدية كتابا يستلقت فيه أنظاره للعبيد الذين تشفع فيهم إليه ، ويذكره
إهمال شفاعته ، حيث إنه كان وصل البرابر الذين وفدوا على حضرته لحضور عيد
الفطر مع جلالته بصلة قدرها عشرون ألف مثقال ، ورد قواد العبيد الذين كانوا
معهم صفر اليد ، فوصل الودايا بصلة تقدر بعشرة آلاف ريال ، والعبيد الذين معه
ثلاثة آلاف ، وأعطى لمن تشفع فيهم ولده المذكور عشرين ألف ريال رعا لشفاعة
ولده ، فطابت نفوس العبيد بذلك .

وفى سادسه أعطى أهل فاس مائة وسق بين قمح وشعير كانت أمانة له
عندهم ، وأمرهم بتوزيعها على الرماة بعد أن عين منها مائة مثقال تعطى لأبى عبد
الله محمد الغالى بن عبد الله الشريف الإدريسى ، وثلاثين مثقالا للقاضى أبى
محمد عبد القادر بوخريص .

وفى أوائل ربيع الأول السنة قدم بشدور النصارى على المترجم ومعه من
المال والثياب والملف وغيرها مما يناسب ذلك نحو من خمسين قنطارا ، بعضها فداء
بعض إخوانه ، وبعضها هدية للسلطان ، قاله ابن إبراهيم .

وفى أواخر شعبان توفى ولد المترجم المولى أحمد بفاس، وحضر جنازته جميع كتاب أبيه ووزرائه وغيرهم من العامة.

وفى عام خمسة وستين اتصل بالمترجم خبر قتل أهل تطاوين لعاملهم الحاج محمد تميم، وبعد ذلك قدموا على أعتابه معتردين ولغفوه مؤملين، فعفا عنهم ولم يعنفهم، بل قال لهم: أنتم وليتموه وأنتم قتلتموه فاختاروا لأنفسكم من يتولى عليكم، فوقع اختيارهم على أبى عبد الله محمد بن عمر الوقاش، وفى نظرى أن هذا من الفشل وضعف العزيمة المؤديان لا محالة إلى الفساد وقديما قيل:

ويقبح وصف الحلم فى سمة الفتى إذا اتسعت فى الحلم طرق المظالم
وقيل:

ووضع الندى فى موضع السيف بالعدا مضر كموضع السيف فى موضع الندى
والله يقول: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ...﴾ [البقرة: ١٧٩].

وفى أوائل ربيع الأولى من العام ورد على الحضرة السلطانية سفير دولة الإصبان بهدية مائة ألف ريال دورو، وتحف ثمينة، وعدد من الملف والحرير والكتان، طالبا فداء أسرائهم الذين بالدولة المغربية، فقبل الهدية وعلق له فكاك الأسارى على فكاك أسارى المسلمين الذين عندهم من غير مال، فكان الأمر كما أراد، ووصل ذكور العبيد وإنائهم بريالين لكل نسمة، وكانوا ألفا ومائتين.

وفى منتصف هذا الشهر بعث البربر إلى الودايا الإعلام بنقض ما كان منبرما من العهد بينهما، وفى غده اختطف البربر ماشية أهل فاس، وكان ما نهب لهم من خصوص البقر ينيف على المائة وتناوشوا القتال.

وفى أوائل جمادى الأولى من العام وفد على الحضرة السلطانية ولد الباشا أحمد بن على الريفى، وشكا إليه بما مسه من الفاقة والاضطرار فرق له وولاه عمالة طنجة وما والاها، ووعد به بأنه سيضيف إليه عمالة تطاوين وأعمالها.

وفى يوم السبت خامس جمادى الثانية أنعم على العبيد بخمسة آلاف ريال، وعلى الودايا بمثلها.

وفى يوم الأربعاء ثالث عشرى الشهر أنعم على أهل فاس بمائتى قفطان وخمسين قفطانا فلبسوها أمامه، ووصلهم بعشرة آلاف ريال.

وفى الشهر نفسه ورجب الذى بعده وشعبان انتشر الوباء فى الأرض المغربية، ولم يزل أمره فى تفاقم إلى منتصف شعبان.

وفى أواخر رمضان وفد العبيد على الحضرة السلطانية بقصد حضور العيد مع علىّ جنابه فوصلهم بعشرة آلاف ريال، وقتلوا أبا عبد الله محمد السلوى، والقائد الحسن زعبول استجلابا لرضا المترجم، إذ كانا من أكبر أعدائه وألد خصومه.

وفى منتصف شوال وفد على صاحب الترجمة صنوه أبو الحسن على آتى الترجمة، فأكرم وفادته وأعطاه مالا جزيلا وذخائر مهمة، وخيره بين أن يستوطن مكناس أو تافلاّت، فاختر مكناس فأقره على استيطانها، ثم تشكى منه العبيد فوجه لتافلاّت.

وفى السنة ورد بعض النصارى على الخليفة السلطانى بمراكش يطلب تأمينه والترخيص له فى وسق الصوف وغيرها مما يتوقف على وسقه وشراء المرتب على السفن التى تأتى لمرسى أكدير بقصد الاتجار وحمل البضائع، فأجابه إلى ذلك، وأعلم والده بما راج بينهما فأمضاه، فإذا بالنصرانى آتى لأكدير بسفن كثيرة ممتلئة

بمقومات البناء من جبر وأجر وغير ذلك وعدد من العملة بنائين ونجارين وحدادين وغيرهم، يريد بناء قصبة تحول بين مرابطة أكدير والماء الذى يستقون منه، فتفطنوا لذلك، وطيروا الإعلام للخليفة المذكور، فأمر بإلقاء القبض على النصرانى ومن معه، فقبض النصرانى وبعض ممن أتى بهم وفر الباقون فى مراكبهم.

وفى العام نفسه تفاخش أمر صالح المجاطى وتظاهر بأمر سحرية استهوى بها سخفة العقول من الأوباش وكثير ما هم، وطار صيته بذلك فى القطر السوسى وغيره، وطمحت إليه الأنظار، وصارت الدولة منه فى خطر، فحذره الخليفة بمراكش وأنذره، ووعظه وذكره، فلم يزد ذلك إلا عتوا وطغيانا، ولما اشتدت شوكته رأى الخليفة أن شوكته لا تنكسر قوة، وإنما يؤخذ باللين والسياسة إذ رُبَّ حيلة، أنفع من قبيلة، فصار يتظاهر له بالتودد وصفاء المحبة ويهاديه ويستشيريه فى الأمور ويسترشده ويتغافل عما يضره ويتجاهل، ويحمل سائر ما يصدر على أحسن المحامل، ويشيع ذلك فى الحواضر والبوادي، حتى استفاض ذلك عند الثائر وحمله على الحقيقة ومن يرد الله أن يضلّه فما له من هاد.

ثم إن الخليفة نهض من مراكش لأكدير قاصدا الإيقاع بالثائر المذكور، ويورى بأنه يريد غزو قبيلة مجاورة للثائر المذكور حادت عن الصراط السوى، وذلك بعد أن استشار صالحا المذكور فى تأديبها، فأذن له فى ذلك وأعطاه تعاليم يتمشى عليها، ولما كان الخليفة على مقربة من أكدير اختار عشرة من الفرسان الصناديد ووجههم أمامه يتجسسون خبر صالح المذكور ويعرفونه بأمره، فاتفق أن وجدوا السوق عامرة خارج أكدير والرجل راكبًا بغلته يتطوف بالسوق ويرتب شئونه فحملوا عليه بخيولهم وألقوا القبض عليه وأوثقوه وساروا به إلى الخليفة، ولما رجعوا إليه بالرجل أسيرا أسرع لداره فدخلها واستولى على جميع ما وجده بها من مال وذخائر وعدة وسلاح وذلك شئ كثير، وأدخل صالحا السجن، ولما طال

سجنه وجه لأولاده يأمرهم أن يوجهوا له موسى وسط خبزة كيلا يتفطن السجان لها فيحجزها عنه، ولما بلغت ذبح نفسه بها، وقد كان فيما سلف صد السلطان والد الخليفة عن دخول آكدير ورماء بالأنفاض، وبعد أوبة الخليفة من هذه الحركة لمراكش أخذ فى إكمال داره بالبديع وغرس جنان رضوان وحنان العافية وغيرهما. وفى عام ستة وستين استقر المترجم بداره دار الدبيغ، وضعفت قواه عن الحركة، وظهر بالمغرب ثوار: فبالغرب عبد الله السفينانى، وبينى مالك الحبيب المالكى الحمادى، وفى أوائل ربيع الأول استقل أهل فاس بأنفسهم وأخذوا يشترون الخيل وجعلوا يركبونها كل بكرة وعشى، واتفقوا على عقاب من لم يشتري الفرس، واستقل كذلك أهل رباط الفتح بأنفسهم وصاروا يولون عليهم ويعزلون ويقتلون ويسجنون، وثار الودايا وطغوا وسعوا فى الأرض الفساد، وأصاب الضعفاء والعجزة من البؤس ما كاد أن يقضى عليهم.

وفى هذه السنة ثار البعض من عتاة الرحامنة وراموا نهب مراكش فلم يوافقهم على ذلك أهل الرأى منهم، وخوفوهم عقوبة السلطان، وشدة بطشه، ثم تحين السفهاء منهم فرصة ودخلوا على النساء الحمامات وثارن بسبب ذلك فتنة عظيمة بينهم وبين أهل البلد، وتلفت نفوس، ولما اتصل الخبر بالخليفة السلطانى بارح مراكش للتأهب لكسر شوكة المتمردين خوفا من اتساع الخرق، ونزل بزاوية الشراذى فاهتبل به زعيمها ووجه للرحامنة اللوم والتعنيف والعتاب الأليم، على فعلهم الذميم، وكان لهم فيه اعتقاد قوى ونية صالحة يخشون غضبه ويسعون فى مرضاته خوفا من أن يدعو عليهم بما فيه هلاكهم، ولا يشكون فى سرعة استجابة دعائه ولا ريب أن ذلك كان من حسن حظ أهل مراكش وسعادة خليفته.

فارتاع الرحامنة وبادروا للخضوع والتوبة والإنابة، ثم استعطف الخليفة فى الرجوع لمحل مأموريته وأوصاه بالرحامنة خيراً لأن التوبة تجب ما قبلها، إنما التوبة للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم، فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه، ومن يومئذ رضخ الرحامنة للطاعة وقابلوا الأوامر السلطانية بالسمع والطاعة وقاموا بذلك أتم قيام.

ولما اتصل بالقبائل الحوزية ما أوجب مبارحة الخليفة لمراكش، أرسلوا إليه رسلهم قائلين: إننا قد ساءنا ما صدر بذلك البلد الطيب من أولئك الأوباش، وإننا تحت أوامركم فيما ترون فى زجرهم وتأديبهم جزاء عما أجرموا، وردعا لأمثالهم، فمُرَّ تَطْعُ فالمال والرقاب، ملك لسمو ذلك الجنب، فشكر حسن عواطفهم وإحساساتهم الجميلة، وعرفهم بتوبتهم النصوح، وحمد الله وأثنى عليه ما خوله من ميل قلوب الرعية إليه، واستيلائه عليها من غير سيف ودم مهراق.

وفى السنة أيضا انعقدت الشروط بين المترجم وبين جنس الاصطادوس، وفيها أغار نصارى الجديدة على آزمور، واقتحموا ضريح الشيخ أبى شعيب ليلا وقتلوا به نحو الخمسين من أهل آزمور.

وفى عام سبعة وستين ثار أبو عبد الله محمد وعلى بوثقالا الشريف الكثيرى، وكان ذا حيل ودهاء يتظاهر بالصلاح شأن من يريد الوثوب على الملك، ويقيم الأدلة على أنه صاحب الوقت، من ذلك أنه صنع طبولا من نحاس ببلاد تعرنت، ومن دهائه أنه لم يطلع عليه فى صنعها أحد ممن يريد استهوائهم وجعلهم فى قبضته كالصولجان، ودفن تلك الطبول بالمحل المعروف بماسة من غير أن يعلم بذلك غير خالقه، واختار للدفن موضعا لا يخطر ببال أحد وقوع الحفر به، وقد كان أهل ذلك القبيل يعتقدون أن طبول ذى القرنين مدفونة بتلك الناحية فى

موضع غير معين لا يطلع عليها إلا صاحب الوقت المجدد للدين، وتواتر ذلك الخبر الواهى لديهم وتناقله كذلك جيل بعد جيل وقيدوه فى دفاترهم، ولم يكن لأحد منهم فى صحة ذلك أدنى شك ولا ريب، وما ذلك عند سخفاء العقول سفهاء الأحلام بمستحيل بل ولا بعيد.

وصار هذا الثائر يتحين الفرص لاقتناص الملك والوثوب عليه بالتظاهر بنشر دعاية دينية، إلى أن كانت هيعة الرحامنة المذكورة فاغتتم تلك الفرصة ولم يبق له أدنى شك فى أن الحين حان، فأعلن النداء فى القبائل السوسية بأنه صاحب الوقت والمجدد الأكبر، وأن علامة صحة دعواه إخراجه طبول ذى القرنين التى هى أكبر علامة عند صغيرهم وكبيرهم على صدق مقاله، فنسل المغفلون إليه من كل حذب وكثير ما هم، واحتف حوله ملاً من الأخلاط عظيم.

ولما رأى كثرة جموعه وإقبالهم عليه ذهب بهم إلى الموضع الذى دفن فيه الطبول وحفرها وأخرج الطبول منها، وهم ينظرون فآمنوا به وصدقوا، ورأوا أنهم قد ظفروا بالضالة المنشودة، والمسلمون ميالون للدين بالطبع، ولا سيما من ليس لديه علم يميز به اللجين من اللجين، والغث من السمين، فاغتروا به وتمسكوا بدعوته، وانتشر خبره فى الآفاق، وادعى أنه لا يحتاج إلى بارود ولا سلاح، وقويت عصبيته حتى لم يستطع من تبين أمره ولم تجر عليه حيلة من علماء وعقلاء القطر السوسى وغيرهم أن يفوه ضده ببنت شفة، وكثر القيل والقال فيما وراء سوس من القبائل.

ولما شاع أمره وذاع ولم ينفع الخليفة السلطانى بمراكش تغافل، أرسل من طرفه بعض خاصته الذين حنكتهم التجارب يختلطون بأتباعه ويتبعون حركاته وسكناته ويأتون إليه بأخباره، فساروا إليه ولازموه ملازمة الظل، واتصلوا ببعض العقلاء المميزين الملازمين له، واتخذوهم أصدقاء إلى أن صاروا يفضون إليهم

بأسرارهم الخاصة، ودرسوا جميعاً حقيقة الرجل المدعى حتى تمحض لديهم أنه أفاك خداع، ماكر يحاول التوصل للملك، ولما قرر أمره للخليفة أصدر أمره لهوارة وهشتوكة أصهاره بقتله وإراحة الأمة من شيطنته ومكره، فنهضوا إليه وقتلوه فى خلق عظيم من أتباعه وأنصاره، ولم يكن لديهم بارود ولا سلاح يدافعون به عن أنفسهم اغتراراً بقوله، وحزوا رأسه ووجهوا به للخليفة بمراكش، وأراح الله من فتنته البلاد والعباد.

وفى أوائل رمضان هجمت على المغرب أسراب جند الجراد المنتشر وأهلك الأشجار، ولم يترك منها سوى الأعواد مجردة من الورق والقشر، أما الزرع فقد وجده تم نضجه فلم يحصل فيه أدنى ضرر.

وفيه أخرج أهل فارس من كان بها من العبيد لاتهامهم بإفساد ذات البين بينهم وبين الودايا، ونقل الأخبار إليهم على غير وجهها، فلم يسع العبيد لضعف قوتهم غير مغادرة فاس القديمة، ونزل البعض منهم بالمدينة البيضاء، والبعض الآخر بقصبة شراكة.

وفىها كان الزلزال العظيم الذى هد جل بناءات مكناس وزرهون، ومات به بالردم خلائق، وتسمى هذه السنة سنة الثلجية لما تراكم فيها من الثلوج التى لم يتقدم لأحد عهد بمثلها، قال أبو عبد الله الضعيف: فى ليلة السبت التاسع من ربيع الثانى نزل عندنا بالرباط بالليل ثلج عظيم ما رأيناه أبداً ولا ذكر لنا أحد من الناس المسنين أنه عقله، ووافق ذلك ليلة الثانى والعشرين من يناير عام أربعة وخمسين وسبعمائة وألف للمسيح.

وفى يوم الاثنين سادس ربيع الأول موافق عشرين ربيع الثانى نزل ثلج كثير بفاس دام يوماً وليلة، زاد فى الدر المنتخب: وملاً السطوح أكثر من ذراع ورموه بالأزقة، وبقي بها مدة أيام وليال، ثم نزل مرة أخرى فى أول يناير الموالى.

وفى عام ثمانية وستين انكسرت سفينة حاملة للحجاج فى منقلبها من الديار الحجازية، فيها من المغاربة سكان فاس وغيرها أربعمئة نسمة من جملتهم القائد أحمد الوليتى الرباطى، وشريفان من أعيان العراقيين سكان فاس، ولم ينج من ركابها غير قليل، وكان ورود هذا الخبر المؤلم لفاس فى شعبان.

وفى العام نفسه توفى زعيم آيت يدراسن، وركنهم المشيد محمد وعزيز، وأضرمت نيران الفتن بين قبيله وبين جروان، وكانت الكرة على جروان، حتى إنه لم يسعهم إلا الالتجاء إلى المترجم وهو يومئذ ملازم قعر بيته بدار الديبغ، ولما ضاق بهم المتسع وعدموا المرعى أخذوا فى بيع ماشيتهم بأبخس الأثمان، ثم إن المترجم لما رأى ما حل بهم رق لهم وآخى بينهم وبين أخواله الودايا، وعقد لهم حلفا معهم فقاموا بنصرتهم والدفاع عنهم والأخذ بثأرهم من آيت يدراسن حتى صيروا بلادهم حصيدا كأن لم تغن بالأمس، وقتلوا منهم نحو الخمسمائة ولجأ جلهم إلى بلاد شراكة.

ومن آثار احتجاج المترجم ونبذه أمر الرعية وراءه ظهريا وعدم التفاته لكل ما يأتى إليه من أخبار الدولة، اضطراب جل بلاد المغرب وفساد النظام وأكل القوى الضعيف وكثرة الثوار، ولما رأى خليفته بمراكش الرتوق لا تزيد إلا انفتاقا، والسيل قد بلغ الزبى، وأن والده لا يجيبه عما يصدر إليه من المكاتب بشرح الوقائع والأحوال، فضلا عن أن يتدثه بكتاب، جمَعَ أهل الحل والعقد وفاوضهم فى الدواء الناجع فى جبر ما انصدع، فأشاروا عليه بالمسارعة بالنهوض بنفسه لإخماد ما اتقد من نيران الفتن قبل أن يعم البلاء، ويلتهب اللفح الأبرياء، ولات حين مناص، فجند الجنود، وقوم البنود، وفرق الأموال، واتخذ سائر الاحتياطات اللازمة فيما يأتى وما يذر، ولما كان شوال العام نهض لرباط الفتح.

ولما بلغ ضواحيه سدوا الأبواب فى وجهه، وركبوا الأنفاض وتحالفوا مع رئيس أهل سَلَا، عبد الحق فنيش على المقاومة والمخالفة والعصيان، ولما رأى ذلك أعرض عنهم وخيم بالدار الحمراء قرب سَلَا، فتسارع أهلها لفتح الأبواب وخرجوا إليه مع رئيسهم المذكور والصبيان حاملون ألواحهم على رؤوسهم متشفعين، وفى العفو والأمان راغبين، قال أبو عبد الله الضعيف: والسيف فى فم عبد الحق المذكور وأولاده الصغار أمامه ويده وراءه، فعفا عنهم، زاد ابن الحاج وأكرمهم وأعطى الصلة لصبيانهم.

ولما رأى ذلك أهل الرباط حلوا أبواب المدينة وخرجوا إليه مع الفقيه أبى العباس أحمد بن عبد الله الغربى، والشريف أبى إسحاق إبراهيم حفيد أبى محمد التهامى الشريف الوزانى، فألقى عليهم القبض وقيدهم بالحديد وأمرهم بإحضار مستفاد المرسى، فأجابوه بأنهم أنفقوه فى بناء سور الثغر، ثم عفا عنهم، ونقل البعض من أعيانهم بأهلهم لمراكش كأبى العباس مرينو الأندلسى، والشيخ أبى عبد الله محمد التونسى الأندلسى، والتهامى مرينو، وولى عليهم القائد العربى المستيرى، إذ كان يعلمه بكل شاذة وفادة، عن أخبار أهل الرباط قبل التعرف به، ويجعل فى إمضاء كتبه خديمك كدية، ولما حل بالرباط وقدم عليه أهلها قال: أين فيكم كدية؟ فخرج إليه فعرفه وولاه.

وكان الخليفة الأمير لما سدت فى وجهه أبواب الرباط، وجه إليهم صاحبيه الحاج سعيد التامرى الكديرى السرار، والفقيه أبى عبد الله محمد بن زاكور ليؤمنوهم وليأتوا إليه بهم فى خفارتهم، فلم يسعهما غير الامتثال وإن تيقنا أن مرسلهم ممتلىء صدره غيظا على أهل الرباط بما صدر منهم وازداد حنقا حيث سدوا الأبواب فى وجهه، وأنه إذا ظفر بهم لا يفلتهم. فقال الحاج سعيد: اللهم إن هذا الرجل لا يريد بأهل الرباط خيرا، اللهم لا تلاقينى بهم ولا معه، وكان رجلا

صالحا فاستجاب الله دعاءه، وانقلب القارب الذى ركبا فيه وغرقا رحمهما الله تعالى.

وقد وجد الخليفة أهل سَلَا، يصنعون سفينة لأنفسهم رئيسها أبو عبد الله محمد عواد السلوى، فأخذها وسفينة أخرى رئيسها أبو عبد الله محمد عواد يدعى قنديل السلوى فأخذها أيضا كما أخذ السفينة التى كانت شركة بين أهل العدوتين سَلَا والرباط، المصنوعة من خشب جامع حسان المسماة لديهم بالكركجيا. قال الضعيف: وهى أول سفينة طلعت قبل هذه السفن، كانوا يتسبون فيها، وكذلك أخذ سفينة كان صنعها عامله على الرباط العربى المذكور، والذى فى تاريخ ابن الحاج أنه لم يأخذ غير السفينة المشتركة وأبقى الغير لأربابه، وما فى الضعيف أصح فى نظرى.

هذا ولما صفا للخليفة أمر العدوتين سكن الرعب قلوب من سواهم، فرتب العمال على القبائل، ووجه لمدينة شفشاون القائد العياشى عامل رودانة سابقا، ولكنه لما وصل إليهم صدوه وأغلقوا الأبواب فى وجهه وحاصروه، وولى الباشا مسرورا على القصر، وأصدر الأمر للقائد عبد الله السفينانى بترحيل عمه المولى المستضىء مار الترجمة من أصيلا، ثم رجع لمراكش منصرف العام.

وفى هذه السنة كتب والى طرابلس الغرب العثمانى رسالة للمترجم فى شأن السكة المغشوشة والحياك المدخولة التى كان يحملها الحجاج المغاربة معهم بقصد التجارة فيها فى طريقهم للحجاز، وكانت السكة قد فسدت منذ استقل القائد قاسم ابن الأشهب بالتصرف فى دار الضرب بفاس، فإنه نحس دينار الذهب والموزونات وبالغ فى تنحيس الموزونات غاية مقصده، فكان فى الموزونات عشر فلوس من نحاس وأربعة عشرة فلسا من فضة من غير علم السلطان.

كما أن حالة مناسج الطرازين قد صارت سيئة لما تولى الحسبة الفقيه السيد الطبيب الريحاني، وكان المحتسب في فاس هو الذى يلى البحث فى مناسج الطرازين والحرارين ويمنع من يحدث دخولا أو فراغا فى المنسج أو نقصا فى الحائك، فلما ولى الريحاني غفل عن البحث فى ذلك، فأحدث الحرارون الفراغ فى المناسج وجعلوا مكان الكثيرة النشا من الدقيق.

وأحدث الطرازون الدخول فى المناسج، وجعلوا يصنعون الذراعين الذين يليان الطرفين معقودين ومن أنفاس القيام حلاوة وبياضا ورطوبة ويزدون حال النسج على الطرفين لتمكن الصحة فيها، ويجعلون وسط الثوب فارغا والسدا خشينا أحرش أسود، فإذا نسج الحايك تجد طرفه فى غاية الحسن حلاوة وصحة ورطوبة وبياضا ووسطه مثل الشبكة.

وكان الحجاج يشترون تلك الثياب ويبيعونها فى طرقهم إلى طرابلس وفى أعمالها، ويحملون الدراهم والدنانير ويشترون بها ما يتقوتون به فى الطريق، فظهر النحاس فى طرابلس فى الدنانير والدراهم العام بعد العام، وصارت الثياب تتقطع من وسطها فشكا عامة الناس ما نزل بهم إلى التركى والى طرابلس وأعمالها فأراد القبض على الحجاج، فكلمه فى ذلك بعض فقهاء طرابلس وقال له: الحجاج لم يصنعوا الثياب بأيديهم، وإنما اشتروها ممن صنعها والدراهم والدنانير المنتحسة ليس هم الذين ضربوها، وإنما قبضوها فى أمتعتهم، فأعلم سلطانهم بذلك، فترك الحجاج وكتب رسالة تضمنت خبر ذلك إلى صاحب الترجمة.

ولما دفع له شيخ الركب الرسالة التى وجه له بها صاحب طرابلس وأعمالها بما وقع للحجاج بطرابلس، قرأ الرسالة وبعث بها إلى أهل مدينة فاس، فاجتمع أهل فاس وقرءوها وقص عليهم الخبر الحجاج، فقال لهم بعض من له رأى من

الفقهاء: هذا منكر متفق على تحريمه يجب تغييره، وقد ذم الله أمة كانوا لا يتناهون عن المنكر فقال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ...﴾ (٧٩) [المائدة: ٧٩].

فاتفق رأى أهل الدين والخير على تغيير ذلك وعينوا من يقوم به، فأمرؤ الأندلسيين أن يقطعوا مناسج النيارين المدخولة، لأن سوق النيارين فى جهة الأندلس ويقطعون ما يجدونه فى الطرازات من أسداء مدخولا، لأن أكثر الطرازات فى جهة الأندلس، وأمرؤ اللمطين بأن يبحشوا فى الحوانيت التى تباع فيها الحياك فما وجدوه مدخولا مزقوه، وأن يقبضوا على القائد قاسم بن الأشهب الذى أفسد السكة ويأتوا به ليجرى عليه حكم الشرع.

فامتنعت طائفة من اللمطين من القبض عليه، وتبع أهل فاس فى ذلك طائفة منهم، وهم الأندلسيون الساكنون بجهة اللمطين المحسوبون فى عددهم، فقال لهم أعيان أهل فاس: دونكم فلا يهمنكم شأن هؤلاء فى رجل واحد لا قبيلة له ولا مال ولا أصول بفاس، يبدل ويغير فى سكة السلطان من غير إذنه، فلا ترجعوا عن زجره.

أما الأندلسيون فساروا إلى النيارين وقطعوا ما وجدوه بحوانيتهم مدخولا وغير مدخول، وساروا إلى الطرازات فوجدوا أكثرهم قد حملوا سدواتهم من الطرازات، فقطعوا ما وجدوه فى الطرازات مدخولا.

وأما اللمطيون فأقاموا بذلك الحاج أبا جيدة بن سليمان الأندلسى، والحاج عبد الواحد عاشر من عقب سيدى عبد الواحد صاحب المرشد المعين الأنصارى الأندلسى، لأنهما ممن كان قبض عليهم التركى صاحب طرابلس، فلما كلم فى ذلك خلى سبيلهم ومعهم من تبعهم على تغيير ذلك المنكر، فساروا إلى سوق الجوطية الذى يباع فيه الحياك فوجدوا الحوانيت فارغة حملها التجار لدورهم.

فساروا إلى دار قاسم بن الأشهب ليقبضوا عليه ويأتوا به لتجرى عليه أحكام الشرع فلم يجدوه خارج الدار، فوثبوا عليه في الدار واقتحموها عليه، فملا دخلوا الدار عليه، وأرادوا البحث فيها، فإذا بطائفة أخرى الذين من تعصبوا عليه قد أقبلت ورموا من بالدار بالحجر، فخرج جميع من كان بالدار، وربما نهب بعضهم من حوائج الدار شيئاً، ثم اشتد القتال خارج الدار في الشارع بالحجارة حتى افترقوا، واختفى قاسم بن الأشهب أياماً إلى أن هذن الهرج وخرج، قاله ابن الحاج.

ثم كلف صاحب الترجمة كاتبه الأسمى أبا الحسن علياً الهمداني بجواب وإلى طرابلس، فكتب في ذلك رسالة من بديع صنعه، قال في الدر المنتخب: إنها اشتملت على أسلوب من البلاغة في المنثور تسحر الأبواب، يعجز عن إدراك ذلك أهل العصر ولولا الإطالة لأوردتها الخ.

وفي عام تسعة وستين وقعت زلزلة أعظم من التي كانت في العام قبله، اهتزت بها الأرض وربت وبقيت تضطرب برهة من الزمان، وسمع لها دوى هائل وتغيرت العيون، ووقف الماء في الأودية عن الجرى، وسقطت الدور وتصدعت الجرات العظيمة، وفر الناس من البيوت والأبنية، واتخذوا الأخبية بالضواحي.

ثم وقعت زلزلة أخرى بعد هذه بنحو ستة وعشرين يوماً أفضع من هذه بعد صلاة العشاء، انهدت فيها غالب دور مكناسة الزيتون، وكثير من مساجدها ومنار جامعها الأعظم إلى الأساس، ومسجد القصبة السلطانية، ومات تحت الردم خلق أحصى منه عشرة آلاف، وعلم من لم يشمله الإحصاء عند الله.

قال الضعيف نقلاً عن تاريخ الحاج المسناوى الرباطي: وفي يوم السبت السادس والعشرين من محرم فاتح العام موافق واحد وعشرين من أكتوبر سنة ألف

وخمسمائة وخمسة وخمسين وقعت زلزلة عظيمة ودامت نحو أربعة أدراج، وذلك قبل الزوال بثلاثين درجا.

وفى العام قدم على المترجم كافة قواد عبيد مكناس، ولما مثلوا بين يديه طلبوا من جلالته النهوض معهم لعاصمة ملك والده ليكون توجهه معهم برهانا على صفاء باطنه عنهم، فأجابهم: كيف أسير معكم وفيكم فلان وفلان أناس سماهم لهم؟ فرجعوا لمحتلهم، ولما جن الليل وثبوا على الأشخاص الذين عين لهم المترجم وقتلوهم، ومن الغد أتوه براءوسهم، منهم: القائد سليمان بن العسرى، فقال لهم الآن طاب العيش ووضعت الفتى أوزارها، وواعدهم بالقدوم عليهم ووصلهم بأربعين ألف مئقال، وأمرهم بالرجوع لمكناس ورجعوا مسرورين، وقد كان قال للعبيد قبل ذلك: والله لا زلت أصبح عليكم فوق كل ثنية وعلى رأس كل ربوة وهضبة كالذيب وأنتم كالغنم لا شغل لى سواكم أنا عبد الله بن إسماعيل إن لم تعرفونى.

وفى العام قدم أبو عبد الله الوقاش عامل تطاون على المترجم بهدية تقدر بألف ريال وأثاث ونصارى أسرتهم مراكبه، فأكرم وفادته وأعطاه جاريتين ورده ردًا جميلاً.

وفيه حرق الفحص القائد عبد الله السفينانى، قيل بإشارة من صاحب مراكش، أعنى الخليفة السلطانى أبا عبد الله، وذلك عندى لا يصح لاستبداد السفينانى المذكور عن صاحب الترجمة، فضلا عن خليفته واستقلاله الاستقلال التام بناحيته، حتى إنه كاد أن يدعو لنفسه لما أوتيته من اشتداد الشوكة، ولم يكن له من ينازعه فى تلك الناحية غير الحبيب المالكى، وقد كان المترجم لما ترك الدفاع والمقاومة ولزم قعر بيته، تارة يقول: إذا رفعت إليه مظلمة وقعت فى السابلة إنما أنا ثالث الأمراء، فإن غرم الأميران عبد الله السفينانى والحبيب المالكى أغرم معهما

ثلثى، وتارة يقول، لمن يأتيه من البقية الباقية متمسكة بطاعة السلطان: اذهبوا إلى سيدى وسيدكم، يعنى ولده خليفة مراكش.

وفيه نهض الخليفة صاحب مراكش للشاوية لما ظهر فيهم من العتو والاستبداد والعيث فى الطرقات، فحصص منهم كل شىء، وأتى بالقتل على أركان الفساد منهم، ونظم الباقين فى قصب السلاسل ووجه بهم يرتاعون فى قيود الهوان ليعتبر بهم غيرهم ممن هو على شاكلتهم، وسار هو إلى أن خيم برباط الفتح فاستقبله أهلها بالترحاب وإظهار الفرح والسرور، وقدموا إليه هدايا ذات بال وأطعمة فاخرة، أما عبد الحق فنيش فإنه أعرض عنه ونأى بجانبه، وأغلق أبواب المدينة دونه، ولما كان الغد نهض وسار ووجهته القصر من غير أن يلتفت لما قابله به عامل سلا، ولا أن يحرك معه ساكنا فى ذلك، إذ كان الأهم لديه أمامه.

وفى عاشر صفر عام ١١٧٠ أغار البربر على سرح فاس، ونهبوا عددا من بقرهم، كما نهبوا أزواج الحرث.

وفى ضحوة يوم الاثنين رابع ربيع الثانى وقع تخاصم وتشاجر بين القاضى أبى محمد عبد القادر بوخريص وبين بعض الأندلسيين حتى همَّ قائدهم محمد الصفار بقتله، ولولا أنه استجار باللمطيين لقتل، وقام هرج ومرج سدت لأجله القرويين، وعطلت صلاة العصر بها.

وفى يوم الثلاثاء سادس عشرى الشهر المذكور اتفقت كلمة العامة على هدم سقف البلاط الوسط من القرويين الواقع يسار الثريا الكبرى هنالك واجتمع رأى اللمطيين والأندلسيين وأهل العدو على حجز حبس المساكين الذى يقبضه الأشراف وغيرهم عمن يستحق وعمن لا يستحق، ويأثر ذلك نجزت فكرة الهدم فعلا.

وفى يوم الجمعة السادس من جمادى الأولى بعث المترجم لأهل فاس بسة مدافع صغار، فاعترضهم الودايا وأخذوهم، فاجتمع رأى أهل فاس على سد باب محروق فسدوه من الغد الذى هو يوم السبت، وأعلنوا النداء بأنهم مسالمون جميع من يوالى المترجم من سائر القبائل، ومحاربون لكل من يعاديه.

وفى يوم الثلاثاء المتصل استقبلهم المترجم واستسمحهم فيما كان صدر منه لهم وأثنى عليهم.

وفى منتصف رمضان نهض الخليفة صاحب مراکش من محل مأموريته، يريد النظر فى أمر الثغور، وحسم مادة فتن الوقاش عامل تطاوين، الذى رام الوثوب على الملك وقطع دابر الفتان أبى الصخور الأفاك الذى كان يستغوى قبائل الأخماس بما يدعيه لنفسه من الصلاح، ويوهمهم بأنه صاحب الوقت ويحثهم على قتال صاحب مراکش، ومحاصرة سبتة وتأديب أهل شفشاون المحاصرين للقائد العياشى المشار إليه آنفا.

ولما وصل بلاد الشاوية قاموا فى وجهه وقتلوه إلى أن انهزم لدكالة، ثم استعد لقتالهم ورجع إليهم بجنود ذات قوة وبأس شديد، وتولى مقاتلتهم بنفسه حتى أباد رءوسهم وبدد جموعهم الفاسدة وأذعنوا وهم صاغرون، وسار إلى مدينة سلا، وأمر بقطع الأعواد من غابة المعمورة وإنشاء السفن، وأصدر أوامره للبasha الزيانى بالوفود عليه بإخوانه العبيد للقصر، وسار إلى أن وصل القصر.

ولما خيم به وفد عليه المولى الطيب الشريف الوزانى، ثم وفد عليه البasha الزيانى فى جند العبيد، ولما مثل بين يديه قال له: أنت سلطان العبيد وأنا سلطان الأحرار، وقد كانت بندقية الخليفة بيده فأطلق فى البasha رصاصة صادفته بين عينيه فخر ميتا من حينه، وذلك بوادى امكرول تحت بلد بنى كرفط، وأعطى فرسه وسلاحه لابن زاكور التطوانى، ثم قتل يوسف السلاح، وذلك لتأخيرهما العبيد

عن القدوم عليه لمراكش، فعند ذلك دخل العبيد رعب فاستجاروا بالمولى الطيب المذكور ووجه لوالده صاحب الترجمة بنحو ألفى مثقال، وولى على العبيد سعيد ابن العياشى .

ثم نهض لجمال الأحماس حيث مقام أبى الصخور، فألقى عليه القبض ثم بدا له فقتله وأراح الرعية من فتنه، وكان قتله إياه بسبت رهونة من لكس، ثم صعد لقنة جبل سkena، ثم سار لشفشاون وقطع أشجارها عقوبة لأهلها على ما ارتكبه مع العامل المولى عليهم، ثم بعث العياشى المذكور عاملا على القصر مع ولده سعيد .

ثم نهض وسار نحو سبتة، ثم ارتحل ونزل بتطاوين فخرج لاستقباله أعيان البلد مع عاملهم الوقاش للتهنئة بسلامة القدوم وقدموا إليه هديتهم طبق المألوف، فطالبهم بمستفاد المرسى الذى ترتب فى ذمهم فأجابوه بأنهم كانوا اشتروها من والده بثلاثين قنطارا مسانهة، فنزعها من أيديهم وقال لهم: أنا أولى بشرائها من والدى، ونؤدى له مائة قنطار كل سنة .

وألقي القبض على الوقاش ووجه به لمراكش سجيناً، بعد أن هدده بالقتل لسيره فى عمالته على غير الطريقة المثلى، وولى مكانه عبد الله بن زاكور المذكور، وقيل: عفا عنه فسرحه وأقره، ثم سار إلى طنجة ومنها للعرائش .

ثم كتب لوالده يعلمه بما جرى، وأنه حاز المرسى، فأجابه قائلاً: هل أنا محجور لك؟ تلك المرسى أتقوت منها، واغتاز غيظاً شديداً حتى قال: اللهم سلط عليه من ذريته من ينزع له ما بيده .

وفى يوم الثلاثاء ثالث شوال ذهب أهل فاس إلى صاحب الترجمة ليقدموا إليه مراسم التهنة بغرة عيد الفطر وفق المألوف، فسر بمقدمهم وأعطاهم أربعة آلاف مثقال صلة .

وفى آخر شوال رجع صاحب مراکش لمقره محل مأموريته، وذلك بعد تنظيم أمور الدولة وإصلاح ما كان اختل من الشؤون.

وفى العام وقعت حرب شعواء بين آيت يدراسن وجروان أعان فيها الودايا جروانا حتى انتصروا على آيت يدراسن بوطا النخيلة من سايس.

وفى يوم الاثنين موفى واحد وعشرين من ذى القعدة قدم حجاج بيت الله الحرام وفى معيتهم رسول أمير مكة بكسوة البيت العتيق، فسر المترجم بها وابتهج، ووجه بها للضريح الإدريسي، وأكرم الرسول بألف مثقال. وفى صفر كانت منيته على ما سنذكره فى محله.

هذا ملخص ما ذكره فى ترجمة هذا الأمير الزياني فى كتبه، والضعيف فى تاريخه، وابن إبراهيم فى تقايدده، وصاحب نشر المثنى، وابن الخياط القادري، وابن الحاج فى دره، وصاحب الاستقصا والجيش العرمرم، مع مزيد تحرير وضبط وإتقان، إذ تضاربت كثيرا أنقالهم واضطربت أقوالهم وتناقض كلام الكثير منهم.

هذا ولا ريب أن سنة الله فى الدول منذ نشأة العالم جرت بتطورها أطواراً طور الشباب فطور الكهولة فطور الشيخوخة فطور الهرم فالموت.

وقد قسم ابن خلدون عمر الدولة أطواراً:

- ١ - طور الظفر بالبغية والاستيلاء على الملك وانتزاعه من الدولة السابقة.
- ٢ - استبداد صاحب الدولة الظافرة على قومه وأهل عصبيته والاستيثار بالملك دونهم.
- ٣ - طور الفراغ والدعة.
- ٤ - المسألة والاقتناع بما حصل.
- ٥ - الإسراف والتبذير وهو آخر الأطوار وينتهى بالانقراض.

وقد أفاد محروو المباحث السياسية تطرق الضعف إلى الدولة الاستبدادية وهو كثير ينحصر فيما يلى :

١- التنافر بين الملك وأهله، والسبب فى ذلك أن الملك إذا أتاح له الحظ التربع فى دست السلطنة أخذته أبهة الملك فيقوم فى اعتقاده أن خلال الكمال، وصفات الجلال، انحصرت فيه، فإذا توهم ذلك فى نفسه شق عليه أن يسمع مخالفة من رجال دولته، لا سيما أهله الذين يجوز للواحد منهم أن يخلفه فى الرئاسة، فيزداد مع الزمان حذرا من أهله، وتختلف طرق تصرفه معهم أو معاملته إياهم باختلاف مزاجه ودرجة تعقله وسائر أحواله، لكنه فى كل حال يخاف على منصبه منهم.

٢- الركون إلى الحضارة. يصح هذا على الدولة ذات القوة والمنعة، فلا تلبث أن تتحضر حتى تضعف قوتها، ويذهب ما كان لها من شدة البأس، ويصير أهلها إلى الرخاء والتمتع بالملذات، وهذا الرخاء إنما يصيب الملك ووزرائه ورجال دولته، لأن الأموال فى الحكم الاستبدادى تصير إلى هؤلاء، وقد تكون الرعاية فى أشد الضنك، إلا من التف حول رجال الدولة وارتزق بالتزلف إليهم ومصانعتهم، والقيام بما يحتاجون إليه من أسباب الملاذ.

٣- اصطناع الجند، الترف والرخاء، يؤثران فى رجال الدولة، فتذهب منهم شدة البأس، فيركنون إلى الملاهى والملذات ويقعدون عن الحرب، وبعد أن تكون قيادة الجند فى أيديهم، يعهدون بها إلى بعض صنعاثهم من أمراء الجيش، وهم يستولون على أعطيتهم من الملك، فلا غنى لهم عن طاعته والأخذ بناصره، فيزداد بذلك الملك ركونا إلى الرخاء، ويزداد ضعفا ويزداد قواده وصنائعه من الجيش نفوذا فى الدولة ودالة على الملك، فيطمعون فى المناصب الرفيعة، فتصير إليهم الإمارة أو الوزارة أو قيادة الجيش فى الحرب، ويصير الحل والعقد فى أيدهم،

يولون الملوك ويعزلونهم أو يقتلونهم أو يحجرون عليهم، كما فعل الترك بالخلفاء العباسيين، والانكشارية بالسلاطين العثمانيين، وجيش العبيد بالسلاطين العلويين.

ويظهر الهرم على الدولة إذا تكاثر المصطنعون، واشتغل السلطان ووزراؤه بأنفسهم عن الدولة وفسدت أمورها، ويزيدها فسادا اضطراب الملك ورجاله إلى النفقات الباهظة على أنفسهم في سبيل الملذات، وبناء القصور، واقتناء الجوارى، والاستكثار من أسباب الترف بأى وسيلة كانت.

ويكثرون الضرائب فتنتشر المظالم، فتغضب الرعية وينقمون، ويتشاورون فيما بينهم عن فساد الدولة، ويتمنون الخلاص منها، ويتربصون فرصة للخروج من سلطانها.

أما الملك فلا يهتم يومئذ غير حفظ نفسه واستبقاء نفوذه، فينفق الأموال في التجسس واصطناع الجند لحمايته، وكثيرا ما تنشب الفتن بين رجال النفوذ أو بينهم، وبين الملك ويتنازع الخاصة - وهم طلاب المناصب - في التقرب من السلطان التماسا للكسب لانحصار المال هناك، ويشتد النزاع على أسباب الرزق، فتكثر الأحزاب ويصبح الأمر فوضى، فيعجز الملك عن تدبيره، وهو عاجز عن ذلك بطبيعة الحال لأنه شب محجورا عليه بين النساء والأطفال، على أن الدولة قد توفق في كهولتها أو شيخوختها إلى ملك مقتدر يريد بها خيرا، لكن لا يستطيع ذلك لتمكن الفساد فيها، وتعويل رجالها على الارتزاق من ذلك الفساد، فيعود سعيه وبالا عليه، كما أصاب عمر بن عبد العزيز في الدولة الأموية، والمهتدى بالله في الدولة العباسية، والسلطان سليم في الدولة العثمانية . . .

فإذا اعتبرنا الدولة جسما حيا، كانت هذه الظواهر أمراضا في ذلك الجسم تدل أعراضها عليها، فتكون العلة في الرأس أو الصدر أو الأطراف، فإن كانت في الرأس فهي في الملك من ضعف رأى أو فساد خلق، وإذا كانت في الصدر فهي

رجال الدولة من طمع وانقسام، وإذا كانت فى الأطراف فمن ضعف العمال والولة أو من جائحة أُصيبت بها المملكة.

ومعالجة هذه الأمراض أيسر فى الحكم الدستورى مما فى الاستبدادى، لأن الملوك المستبدين إنما يطلبون النفع الشخصى، فإذا كانت علة الفساد من ضعف أخلاقهم، فإن ذلك الضعف يغريهم على التمسك بالسيادة ولو آل أمرها إلى خراب المملكة.

أما إذا كان الرأس سليما فيهن عليه معالجة سائر أسباب الضعف، فالدولة الاستبدادية يتوقف موتها وحياتها بالأكثر على الملك خلافا للدولة الدستورية.

والفرق بين الحكم الاستبدادى والحكم الدستورى، أن الأول هو الشريعة التى يحكم بها الملك رعاياه، والثانى عبارة عن القوانين التى تقيد الرعايا بها أحكامه وأحكام رجال دولته، وعبارة أخرى: إن الحكومة أو الدولة قد تكون مؤلفة من رجل أو عدة رجال، وبها ثلاثة أعمال: سن القوانين، والفصل فى الخصومة، وما هى نسبة أعضائها بعضهم إلى بعض، ويبن الكيفية التى ينبغى أن تجرى بها الأحكام، فهو قيود للقوة المتسلطة، والإنكليز هم أول من أنشأ مجلس النواب وأعطاه هذه السلطة، ولذلك يقولون فى أمثال الإفرنج «إن الإنجليز أم المجالس النيابية» والدستور لا يختص بالحكم الملكى ولكنه يتناول الجمهوريات، بل الجمهوريات أولى أن تقيد بإدارة الشعب، وكل أمة فيها مجالس تنوب بأصواتها عن الشعب كانت حكومة دستورية.

ويسوئنى للغاية تغلب الاستبداد على طبيعة ملوك الإسلام، مع علمهم بفائدة التقيد بقوانين الشريعة المتعلقة بالأمور الدينية والدنيوية، التى من أصولها المحفوظة إخراج العبد عن داعية هواه، وحماية حقوق العباد سواء كانوا من أهل الإسلام أو غيرهم، واعتبار المصالح المناسبة للوقت والحال، وتقديم درء المفاسد على جلب المصالح.

ومن أهم أصولها وجوب الشورى، ومن الأصول المجمع عليها وجوب تغيير المنكر على كل مسلم بالغ عالم بالمنكرات، ولولا تغيير المنكر ما استقام للبشر ملك - لأن الوازع ضرورى لبقاء النوع الإنسانى ولو ترك ذلك الوازع يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لم تظهر ثمرة وجوب نصبه على الأمة لبقاء الإهمال بحاله - فلا بد للوازع المذكور من وازع له يقف عنده إما شرع سماوى أو قانون معقول، وكل منهما لا يدافع عن حقوقه إن انتهكت - فلذلك وجب على علماء الأمة وأعيان رجالها تغيير المنكرات، فالغيرون للمنكر فى الأمة الإسلامية تنقيهم الملوك كما تتقى ملوك أوربا المجالس وآراء العامة الناشئة عنها وعن حرية المطابع - ومقصود الفريقين واحد، وهو الاحتساب على الدولة لتكون سيرتها مستقيمة.

قال ابن خلدون فى فصل الإمامة من مقدمته: إن الملك لما كان عبارة عن المجتمع الضرورى للبشر ومقتضاه التغلب والقهر للذان هما من آثار القوة الغضبية المركبة فى الإنسان، كانت أحكام صاحبه فى الغالب على ما ليس فى طوقهم، فتعسر طاعته بذلك، وتجيء العصبية المفضية إلى الهرج والقتل، فوجب أن يرجع فى ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة وينقادون إلى أحكامها كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الأمم، وإذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستقم أمرها ولا يتم استيلاؤها، فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصائرهم كانت سياسة عقلية، وإذا كان فرضها من الله تعالى بشرع يقررها كانت سياسة دينية نافعة فى الدنيا والآخرة - . . . أجل نفعها لا يتم إلا ببقائها محترمة بصونها، والذب عن حوزتها بمثل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

فمن ثم وجب أن نجزم أن مشاركة أهل الحل والعقد للملوك فى كليات السياسة مع جعل المسؤولية فى إدارة المملكة على الوزراء المباشرين لها بمقتضى قوانين مضبوطة مراعى فيها حال المملكة، أجلب لخيرها وأحفظ له.

قال ستورد الإنجليزى فى تاريخه: «إن رفعة شأن الأمة الإنكليزية بلغت الغاية فى مدة الملك جورج الثالث الذى كان مجنوناً وما ذلك إلا بمشاركة أهل الحل والعقد ومسئولية الوزراء لهم» فتبين أن المملكة التى لا يكون لها قوانين ضابطة محفوظة برعاية أهل الحل والعقد خيرها وشرها، منحصر فى ذات الملك وبحسب اقتداره واستقامته يكون مبلغ نجاحها .

قال المؤرخ الشهير تيراس الفرنسى عند ذكره عواقب الاستبداد وأن العمل بالرأى الواحد مذموم ولو بلغ صاحبه ما بلغ من الكمالات والمعارف - بعد ما ترجم لنابليون الأول بأوصافه الخاصة وألحقه فى السياسة بأفراد الرجال الذين جادَ بهم الدهرُ فى القرون الماضية - إلى أن قال مخاطباً للفرنسيين: تعالوا نمنع النظر فى أحوال هذا الملك التى هى فى الحقيقة أفعالنا، فيستفيد منها من كان جندياً كيف ينبغى أن تقاد الجيوش، ومن كان من رجال الدولة معرفة كيف ينبغى أن تكون إدارة المملكة وكيف ينبغى أن يرتفع شأنها بدون خروج عن دائرة التواضع والرفق، إذ المعاملة متى لم تكن مصحوبة برفق وقناعة لا تتحمل، وربما يفضى ذلك إلى أسباب الاضمحلال كما أفضت إليها سيرة المذكور الذى هو أقل البشر قناعة، فبالجملة نعتبر بغلطته فتنجنبها ثم نستفيد معاشر أبناء الوطن تربية أخيرة لا يسع نسيانها، وهى أنه لا يسوغ أبداً أن يسلم أمر المملكة لإنسان واحد، بحيث تكون سعادتها وشقاوتها بيده، ولو كان أكمل الناس وأرجحهم عقلاً وأوسعهم علماً .

إن الذى له القدرة بحيث يستطيع أن يفعل كل ما يريد معه داء لا دواء له، وهو الشهوة الداعية لفعل كل مستطاع ولو كان قبيحاً، وإذا تقرر هذا فعلى أبناء الوطن أن يتأملوا فى سيرة المذكور ويستخرج منها كل فريق ما يناسب خطته -

والأهم أمر واحد وهو أن لا يطلق أمر الوطن لإنسان واحد كائنا من كان وعلى أى حالة كان .

وقد ختمت هذا التاريخ المطول المستوعب لأحوال نصرنا وانهزامنا بهذه النصيحة بل الصيحة الصادرة عن صميم فؤادى غير مشوبة برياء راجيا بلوغها إلى قلب كل فرنسى ليتيقن جميعهم أنه لا يليق بهم بذل حرمتهم إلى أحد - كما لا ينبغى لهم الإفراط فيها حتى لا تنتهك حرمتها هـ .

وفى حكمة أرسطو أن من الغلط الفادح أن تعود الشريعة بشخص يتصرف بمقتضى إرادته .

هذا ومن تأمل هذه الترجمة ودرسها كما يجب تبين له جليا كيف كانت الرعاية تعامل المترجم وهو من خيرة ملوك هذه الدولة التى لا يزال شأنها ممتدا ونفوذها مستمرا وظلها وريفها، ولست متكبها ولا مغضيا إذا قلت - ملكا من خيرة ملوك هذه الدولة - فقد مر بك كيف انزوى وتورع عن الانتصاب لهذا الأمر مدة يبالغ فى الإلحاح عليه فيه ويخاطب بكل رغبة من أجله، ثم مرّ بك كيف كان يعطى العطاء الوافر، وكيف يحسن وفادة القادم المطيع، ويحتفى بالنزيل المخلص، وكيف كان يفرع لكل من يتوسم فيه مقدرة للعمل وأصالة فى رأى وقوة فى الحق، فيوليه الأمر ويسند إليه النظر ويشركه السلطان .

فهل كان فاعلا ذلك ومبالغا فى الغضب إذ ينتقم من أجل إخلال بالأمر أو سير للشئون على طريقة غير منتظمة أو غير عادلة، إلا خدمة لمبدأ العدالة المنشود، ورغبة فى استتباب الأمن المرغوب، وحبا لنشر ألوية السكينة فى كل مكان، وتعميم المساواة والحق بين جميع أفراد الإنسان .

فهل كان وهو كما مر بك يأمر بعزل أبناء الروسى واحداً فآخر مثلاً أو أمراً بولاية أفراد من غيرهم وآخرين من عشيرتهم إلا قاصداً أن يجد فى هذا ما ساء

الظن به فى ذاك، وهل كان يتغير ويستبد ويعمل بصرامة وشدة ما فوقها من شدة ما لم تكن دسياسة تؤثر أو مكيدة تدبر أو مؤامرة تنقل . . . إلا أن إمكن أن تفرض له من غاية غير معروفة أو قصد غير مطرد وهذا ألا أراه كما لا يراه الجمهور العاقل من غيرى.

لنرجع إلى التاريخ نفسه. فهل له أن يرشدنا إلى وقت سادت فيه السكينة وعم فيه الأمن أو وقف فيه فقط دولاب الحركات والثورات وإيقاد نيران الفتن من زعمائها وأحزابها، ثم نسائله هل كان من صاحب الترجمة أن عمد إلى شىء من استبداد برأى أو سوء صنيع برعية؟ وهل كان إن انتهك حرمة أو أساء صنيعاً أو تعمد قتلاً وأسرف فيه ما لم يكن قد ضاق صدره واشتعلت أطراف الفتن والمؤامرات من كل ناحية؟

بل هذا ملك البلاد وهو على رأس السلطنة يضطر لتحمل إهانات شنيعة من زعانيف صعاليك بعد تجرع أنواع المضض من سوء السيرة وأنباء الفتن وحوادث الاضطرابات وآفات التفرق، ثم تزوج عليه نساؤه بدون موجب، ويؤخذ منه حريمه غصباً، ثم يوقف موقف السوق مؤاخذاً معاتباً من أنذال لا خلاق لهم كنت لا تجد بينهم لو اطلعت عليهم من لا تفرق بين دماغه وبين أرض البادية الخلاء البلقع محلاً وجذباً، ثم ندعوه أمام التاريخ لحسابه على ما فرط، ولمؤاخذته على ما جنت يده.

ومع ذلك فلست أنكر أن كانت للرجل مندوحة فى كثير من الأحيان وفى نظائر وأشباه من المناسبات والظروف عن تحمل مسئولية كثير من الوقائع والأخطار، وتجنب غير قليل من الحروب والمشاغبات، فقد كان يمكن أن يفض الكثير منها بحسن السياسة المستعمل فى غيرها، وجميل التدبير المتخذ فى نظائرها، وبذلك كانت تصان دماء وتحفظ حقوق وتقف اضطرابات عند حد.

ثم كان ذا نظر ثاقب فى الأمور، ومعرفة واسعة بأحوال شعب يتقلب فى مجالات ممتدة من الاضطراب وفقدان الثقافة وجمع الكلمة أن يحالف فى الأغلب الأكثر من وقائع الدولة وشئون الأمة، ولكن الوقت القليل كان لا ينقضى أحيانا إلا والأمر قد تجدد، والشر قد عاد وبوادر الفتنة قد أمست تجهر بأعلى صوت مولية وجهها نحو مقر لم تغادره إلا من أمد قريب، فما ظنك بمن يئول إليه أمر هذه المسئولية كُلاً، ومن يخاطب عن هذه الوقائع طراً، فهل كان يجد له من غالبها مخرجاً إلا ضرباً بشدة، وقمعا بجميع ما أوتيته من صرامة ممكنة؟

لعل مراجع التاريخ المغربى والمتصفح بدقة وإمعان لا شأن للقصور أو الغرض فيه، يرى من ضرورة هذه الأحوال وقضاء الظروف بها ما يخفف من غلواء النقد ويبيض صحيفة من حسن القصد فى تاريخ ملكنا المترجم، مهما أملت علينا ترجمته من وقائع كلها محزن، وحوادث كلها أليم.

ثم هنالك ما لا يسع التاريخ إهماله أو غرض النظر عنه من بحث لأحوال حاشية السلطان ونظر لبطانة الملك، فهل كانت هذه البطانة أو الوزارة التى لا غنى عن صلاحها وإصلاحها موفية بالغرض من وجودها فى جوار صاحب الترجمة وإعانتته على خدمة أغراض الدولة ومهام الأمة؟

كلاً وألف مرة كلاً فقد مر بك متكررا معادا ما كان يحاول من انتقاء المساعد والمعين ومبالغة فى اجتناب من لا خير ولا صلاح للرعية فيه وفى ولايته، ثم ما كان يلاقى منهم من جفاء فى الطبع ولؤم فى العشرة وكفران للنعمة، وجحد للواجب وتصرف شائن خائن، كله أغراض ومطامع ذاتية لا شأن للشرف والذمة وصدق الخدمة فيها.

ومتى بربك تصلح حال أمة أو تصلح أحوال ملك وحاشيته وأعوانه ومعينوه على تدبير الأمور كلهم عابث متمرد أو حقوق مستبد أو متصرف لنفسه وغاياته،

يحسب الناس منهم صنيعا شريفا أو يرقبون عملا مفيدا، وما هو فى ذلك من المعدودين .

فكم كان يكون صلاح الرعية والملك لو استقام المشاور وأخلص الوزير، وكرم عنصر المساعد والمعين، فما إن يولى الولاية كما تقدم فى كل موضع أو يمنح الأمر أو يشرك الحكم إلا والعبث مستحكم والاستبداد منتشر، وحبل الأغراض والمطامع ممتد مجالا بعيدا .

ثم ليت شعرى وهذه حال أمة تصادف من متبوعها ما صادفت من صرامة وشدة وطأة وقمع بمختلف وسائل القوة، ثم لا يزيدها الورد إلا عطشا، ولم يكن العلاج لها إلا مثيرا ومحرضا، فهلا كان من الضرورى أن تعامل كما عاملت وتقابل بالنظير مما فعلت؟

وهل يبقى حال شعب هكذا وربك من وقت للنظر فى أحوال صلاح أو تمهيد إصلاح فأحرى نظر أحوال خارجية أو أمور تقضى بها ضرورات المدنية، وهذه السبل متقطعة والمواصلات منعدمة، والدماء تسيل، والفتن تتوالى من كل حذب وحبل، إلا من ينصدع من بين أمس الدابر والغد المنتظر .

فلعل التاريخ كان يصارحنا بما يقلل من عظيم مسئولية هذه النكبات والخطوب أن لو كنا لجريانها فى وقتها من الحاضرين أو لدراستها بأسبابها ووقائعها المحلية من المستوعبين، وهكذا التاريخ لا يسوغ أن نكتبه أو ننقله، فأحرى أن ننقده ما لم نكن لحوادثه ودقائقه قلَّت أو جلَّت من المتعللين، ولأحكامه وشواهد المأثورة من الجالين .

وما القصد من ذلك إلا خدمة علم التاريخ وإحكام وضع مبانيه على ما تأسس من قواعد محكمة، وأصول مرتبة، وإلا ففيم التاريخ وقد حاد كاتبه عن

الحق وجانب الصواب أو أغضى عن تحقيق الحقائق وإعلان الواقع، وإن كان يهتم أقرب الناس إليه وأكثرهم اتصالا به، والتصاقا بسببه.

وما أشد ما يذكرنى هذا بصنيع ذلك الفريق الجاهل المتورط الذى ظن أن التاريخ وقائع تسرد لإرضاء زيد أو عمرو، وحكايات تنقل لمجرد سواد عيون (بصرى) معجب أو كوفى فخور كلا، فالتاريخ الحكم العدل على الأشياء والأعمال، ومصادر الرجل إن خيرا كانت لهم صحفا بيضاء تبيض وجوههم ووجوه عثرتهم يجب أن يقتفى أثرهم فيها، وإلا فخزيا وسبة تكون لهم ولمن بعدهم ممن قلدهم فيها مثلا فى سوء الصنيع وشر الأحداث إلى الأبد.

ولقد كان جزاء عدلا أن يلقي المتعنت على التاريخ خسة، وينال حطة، ويصادف ضعة، وإلا فالحقيقة لا تحارب، وقول الواقع لا ينجى من وخزه إلا التنكب عن طريق الضلال، والإنابة إلى المثوبة وحسن الحال.

هذا وقد كانت مدة مقام المترجم بدار ديبغ عشرة أعوام، وقيل سبعة، وقيل أربعة، قالوا: وقد قتل مدة سلطنته صبورا ما يزيد على سبعين ألف نسمة، قتل منها فى يوم واحد خمسمائة وخمسين، قالوا: وقد كان يعطى عطاء من لا يخشى الفقر من النقود الذهبية والفضية والكراع والضياع والأثاث والثياب الفاخرة وغير ذلك مما أشرنا لبعضه.

مشيخته: منهم أبو محمد عبد الله المنجرة، عن والده أبى العلاء إدريس بأسانيده المتصلة فى فهرسته.

الآخذون عنه: منهم ولده أبو عبد الله محمد المتبوى عرش الملك من بعده، أخذ عنه دلائل الخيرات.

خلفاؤه: بمراكش أبو عبد الله محمد، وبرباط الفتح أبو العباس أحمد ولداه.

حجابه: منهم عبد الوهاب اليمورى.

أطبائه: منهم أبو اليمن عبد الوهاب أدراق.

عماله: منهم الباشا بوسلهام، وحمدون الروسى، وولده البادسى، وابن المجاطية، وبوعزة مولى الشرييل، ومحمد بن عمر الوقاش على تطاوين، وبوسلهام الغرباوى الحمادى على بنى مالك، ومحمد الحبيب المالكى الحمادى كان على سفيان وبنى مالك والخلط وطلق، وسليمان بن الرغاي، وأحمد بن على الريفى، وأبو عبد الله محمد بن على بن كتنى الزمورى، ومحمد واعزيز على البرابر وكان بينه وبين السلطان محبة ووداد كبير، حتى إن السلطان كان يناديه بيا أبت، وعبد الخالق عدیل بفاس المتوفى ليلة الأربعاء ثالث عشرى ذى القعدة عام ١١٥٨، وعبد القادر عدیل، وعلى بو طيب، وعبد الله بن محمد المعروبى السفينانى على سفيان، والحسن بن صالح الليرينى على فاس الأندلس.

ولما مات فى أوائل محرم عام ١١٦٢ ولى مكانه ابن عمه مسعود الليرينى، وقاسم ابن الأشهب، ومحمد الصفار، وأبو العباس أحمد الكعيدى، والباشا قاسم ابن وينون، وعبد المالك بن أبى شقرة، وأبو عبد الله محمد السلوى، وعبد النبى ابن عبد الله الروسى، فكاتبه الطيب بن حلوة فعبد اللطيف بن عبد الخالق الروسى، ومحمد بن على ويشى وعبد الله الحمرى.



ظهیر السلطان مولای عبد اللہ بتولیۃ المسطاسی ناظرًا عاما

قضاته: منهم أبو عيسى المهدي مرينو بالرباط، وأبو محمد عبد القادر بن العربي الكاملى بوخريص، وأبو يعقوب يوسف بن أبى عنان، وأبو القاسم العميرى، وعلى بو عنان، وأحمد الشدادى بفاس، والطالب بو عنان، والعميرى، ومحمد بن عبد السلام البيجرى، وعبد الوهاب بن الشيخ بمكناس، وعبد الواحد بو عنان بتازا وفاس.

محتسبوه: منهم بو عزة الزيزى بفاس، ثم محمد الريحانى، ثم عبد النبى المشرف، والطيب الريحانى، ومحمد بن زيان، وعبد العزيز الخطى، ومحمد بن عبد السلام المحمودى.

نظاره: منهم التاودى المشاط بفاس، ولما توجه للحج أضيفت النظارة للمحتسب الطيب الريحانى، ومنهم السيد بلقاسم المسطاسى أسند إليه النظر فى أمور أحباس جميع المدن والبلدان والقرى والمداشر حسبما بهذا الظهير الصادر له فى ذلك، ونصه بعد الحمدلة والصلاة والطابع الشريف:

«كتابنا هذا أسماه الله وأعز نصره، وخلد فى دفاتر المجد أمره وذكره، بيد خديمنا وحبيب أبوابنا الأرضى، الخير الأقرب، السيد بلقاسم المسطاسى ويتعرف منه بحول الله وقوته، وشامل يمنه العميم ونصرته، أننا جددنا له به ما كان عليه من النظارة فى أمور الأحباس فى جميع الأقطار والمدن والبلدان والقرى والمداشر، وبسطنا له اليد الطولى على جميعهم بحيث لا يقصر عن البحث والتفتيش فى الأدنى والأقصى، فإن جل مهماتنا هذا الأمر الأكيد، وجعلناه العوض منا فى ذلك، فمن نازعه أو خالفه أو ناوشه فإثمه على رقبته، وإنى بفضل الله تعالى وقوته أقمته هذا المقام، على مر الليالى والأيام، فعليه بتقوى الله ومراقبته، فى

سره وعلايته، وعليه بمحاسبة النظار وأهل التصرف فى هذا الأمر حتى يترك من أراد ويولى من أراد ومنا إليه فى التقصير، وعلى الله المعول وهو حسبنا ونعم المولى ونعم النصير، وفى منتصف جمادى الثانية عام ثلاثة وأربعين ومائة وألف.

آثاره: لم يحفظ عنه من الآثار العلمية فيما أعلم شىء غير ما نسبته إليه نسبة أهل عصره العلامة الثبت المحرر النقاد أبو عبد الله محمد الزكى الشريف العلوى السجلماسى، قال فى مؤلفه فى الأنساب الموسوم بالشجرة الزكية ما لفظه: صرف همته - يعنى المترجم - فى صناعة الملحون كان طوع يديه.

ومن آثاره التى لا زالت قائمة العين بفاس دار ادبيغ الشهيرة التى كان أسسها واستوطن بها إلى أن وافته منيته، وكان الشروع فى بنائها أوائل محرم عام ١١٥٤، ومن بناءاته دويرة باب الريح خارج مكناسة، ومنها تنميق باب منصور العليج، وباب مسجده المعروف بجامع الأنوار.

ما خلفه من الأولاد: لم يعقب غير ولدين وبنت، أما الوالدان فهما: أبو عبد الله محمد خليفته بمراكش، وأبو العباس أحمد خليفته بالرباط المتوفى بفاس فى شعبان عام ١١٦٤، وأما البنت فهى السيدة فاطمة ربة الدار.

وفاته: توفى بمرض السل بدار الديبغ ليلة الخميس سابع عشرى صفر عام واحد وسبعين ومائة وألف، وتولى غسله قاضيه أبو محمد عبد القادر بوخريص. قال ابن الخياط القادري، ودخلنا إلى داخل الدار وقرأنا عليه وأخرجناه إلى خارجها، وصلينا عليه بعد صلاة العصر فى البراح الذى بخارجها، وإمام الصلاة عليه خطيب جامع الأندلس، وإمامها سيدى محمد بن أحمد ابن الإمام سيدى محمد ابن شيخ الشيوخ سيدى عبد القادر الفاسى.

بعض ما قيل فيه من المديح : من ذلك قول بعض شعراء دولته حسبما جاء
فى كناية الوزير اليمى الذى كان صاحب الترجمة هو السبب فى إحيائها
بالنسخ وإبرازها إلى الوجود فهى حسنة من حسناته :

لقد فخر الزمان وكان قدما	فخورا بالملوك من الفحول
فقلت له وقد أبصرت شمسا	تضىء على الأباطح والتلول
بدت بسعودها فى خير برج	تدوم ولا تعقب بالأفول
لها مولاي عبد الله نور	سليل المصطفى وابن البتول
به فافخر وفى مغناه فانظم	فلا فخر كأبناء الرسول

وقوله :

يمينا بمن حض الملوك على الخير	وألبسهم ثوب المكارم والفخر
كمولاي عبد الله خير خليفة	تحلى بتاج الملك والعز والنصر
له همة تعلو على هامة العلا	وتسمو به فوق السماكين والنسر
فلا زال منصورا عزيزا مؤيدا	ودامت لنا أيامه لمدى الدهر
وأهدى لمولانا أجل تحية	يفوق شذاها نسمة العنبر الشحرى

وقوله :

كتاب كريم جاء من خير مالك	فصغت به تاجا لرأس الممالك
وقمت بأمر الضيف إذ هو واجب	على كل ذى عقل وجوب المناسك

وقوله :

ظباه بإبريز مذاب السبائك
لحللته منها لأرضى مالكي
ليسلك فى علياه خير المسالك
ودافع به عنا جميع المهالك
إمام الهدى المرفوع فوق المسامك

وجدت ديوان الكرام محلها
ولو كان فى إنسان عيني زينة
فيارب زده رفعة وجلالة
وأبق لنا والمسلمين وجوده
وصل على المولى النبى محمد

وقول بعضهم :

ويا بهجة الأشراف من آل هاشم
وأصبح مسرورا به كل عالم
إلى كل مسكين بمقلة راحم
تذل لها رغما أنوف الأعاجم
تفتت إرهابا قلوب الضراغم
وجودك منسى به جود حاتم
سجاياء الملوك الشم أهل المكارم
ضروب العلا إذ كنت أحزم حازم
تذود لديه بالقنا والصوارم
برأى مصيب للعساكر هازم

عليك سلام يا ضياء العوالم
ويا من سما غضبا على كل جاهل
وأصبح ظل الله فى الأرض ناظرا
ويا من كساه الله منه مهابة
ويا من له حزم وعزم وسطوة
كفأك افتخارا أن عزك ظاهر
وكون سجايك التى فاح عرفها
لعمرى لقد ألفت إليك زمامها
فقمت على الملك المشيد ركنه
وأغنأك رب الناس عن جمع عسكر

ونفس علت فوق السماكين همة
فجئت وسيل الغرب قد بلغ الزُّبى
ونار الشرور فى الفجاج تأججت
فدوخته من بعد ما استنشرت به
وعقل غنى عن هداية عالم
وأسواقه معمورة بالجرائم
فطاب لأهل البغى هتك المحارم
بغاة وقد طالت رعاة البهائم
فأمتتنا من كل طار وطارق
وحصنتنا من كل داه وداهم
علاقته السياسية: وقفت له فى هذا الباب على معاهدة هذا نصها بلفظها
وحروفها:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على من لا نبي بعده ثم إمضاؤه
(عبد الله كان الله له):

«هذه نسخة شروط الصلح والسبب بين سيدنا نصره الله السلطان الأنجد،
الشريف الأسعد، سيدنا ومولانا عبد الله بن مولانا إسماعيل قدس الله روحه فى
الجنة أمين سلطان مراكش وفاس ومكناسة والغرب، الإصطادوص المعظمين فى
بلادهم وهم سبعة من قبائل الفلامنك مفاصلين بأمر سيدنا وتفويضه نصره الله
والبشادرات فرنصصك ودون اليوزبوطلير بأمر وتفويض الاصطادوص المتأويين
المذكورين مع وكيل سيدنا ومولانا نصره الله، وهو خديمه القائد محمد لوكاس،
ووكيل الاصطادوص المذكورين افرنصصك بوطلير وأخيه لويز هـ.
الشرط الأول:

انبرم الصلح وتصحيح العهد بين سيدنا ومولانا عبد الله نصره الله وبين
الاصطادوص المتأويين من يوم عهد الصلح يكون فيه الأمان التام، يأمن الخائف فيه
الجهتين، وكلما وقع من الزمان الفايث من الكرة وغيرها فهو منسى، وهذا الصلح

دائماً إن شاء الله من الجانبين ورعيتهم ومن اليوم لأمام تكون المحبة وعهد دائم بين الجانبين هـ.

الشرط الثانى :

جميع سفن الفلامنك وسفن رعيتهم المعروفين للديوان المذكور سواء كانوا نصارى أو أهل ذمة من الذين تحت أيديهم إن دخلوا مرسى من مراسى طاعة سيدنا ومولانا نصره الله بقصد الترسية خيفة من البحر أو بقصد التجارة لا يتعدى عليهم أحد، ولا يعطون سوى عشر سيدنا ومولانا نصره الله من غير أن يخرق عليهم أحد عادة جديدة، والسلعة التى تبور لهم فى البلاد بعد أن كانوا أدوا عشرها إن أرادوا يحملونها ويتراجعون بها حيث شاءوا، بل حيث يظهر لهم براً وبحراً، من غير لازم آخر يلزمهم، بوجود سيدنا نصره الله وكمال إحسانه، وكذلك إن ورد مركب من مراكبهم لبلاد من بلدان طاعة سيدنا ومولانا أدامه الله، وكانت عنده سلعة وأراد أن ينزل منها طرفاً فى تلك البلاد والباقي يسافر به لغيرها، نطلب من سيدنا أيده الله ألا يعترض أحد لذلك المركب، ولا يكرهه على نزول تلك السلعة فى البلاد التى يرضى بها، ولا يعطى إلا عشر السلعة التى نزل فى البلاد من غير معارض له فى ذلك بوجود سيدنا ومولانا نصره الله، وكل ما كان محسوباً من آلة الحرب كالبارود والعدة واللوح للسفون وما أشبه ذلك، إن جاء به مركب من مراكبهم بمرسى من مراسى سيدنا نصره الله بقصد السبب فلا يلزمهم عليه عشر بوجود مولانا وسيدنا نصره الله هـ.

الشرط الثالث :

أن جميع سفن الفلامنك التى يهيج عليهم البحر أو يفرون من عدوهم، إن دخلوا مرسى من مراسى سيدنا ومولانا نصره الله لا يلزمهم بارود ولا مخطاف ولا غيره مما هو معلوم من لازم المراسى ووظائفها، بفضل سيدنا نصره الله، وكذلك

مراكب طاعة سيدنا إن وردت على مرسى من مراسى الفلامنك فى هذه الحالة المذكورة لا يلزمهم شىء إن شاء الله هـ.

الشرط الرابع:

أن جميع سفن الفلامنك تسافر فى البحر من غير أن يتعدى أحد عليهم فى مراكبهم فى مال ولا سلعة ولا رائس ولا بحرى ولا راكب إن كان معهم من غير الفلامنك، إذا كان تحت سنجق الفلمنك سواء كانت السلعة له أو لغيره بفضل سيدنا نصره الله هـ.

الشرط الخامس:

أن جميع مراكب سيدنا القرصانية وغيرها إن تلاقوا فى البحر مع سفان البزركان وأراد أحدهما أن ينظر بصبرط يبعث إليها رجلين من غير القدافين ينظرون ذلك، ويرجع كل أحد منهم لمركبه من غير تعدى ولا تعارض، ولا يطلع أحد منهم للسفينة إلا من يجيب رائسها، وكيف يورى له كيف هو مبين هذا الشرط يسرحه، وإن سفر مركب من مراكب سيدنا نصره الله القرصانية وغيرها يكون عنده بخط قونصوا الفلمنك المقيم بطاعة سيدنا نصره الله، فإن كان القونصوا غائباً فتجار الفلمنك، وإن لم يحضروا تجار الفلمنك فمن تجار النصارى المقيمين بطاعة سيدنا نصره الله، وإن كان عنده ذلك يوريه الراس ولا يتعدى عليه أحد ويسرحه فى الحين والساعة هـ.

الشرط السادس:

لا يتعدى رائس ولا بحرى من أهل طاعة سيدنا نصره الله على سفن الفلمنك، ولا ينزلون منها راكبا من أى جنس كان تحت سنجق الفلمنك ولا يتراعى عليه أحد هـ.

الشرط السابع:

ألا يتعدى أحد على سفارين الفلمنك التي تحرث قرصانا أو زركانا فى طاعة سيدنا نصره الله، ولا يأخذ لهم شيئا من السلعة ولا قلع ولا غير ذلك من سائر حوايج المراكب المعلومة ولا ركابه ولا رائسه بوجود سيدنا نصره الله، ويكونون متع رءوسهم من غير أسر وأهل طاعة سيدنا نصره الله، يأخذون بأيديهم ويعينوهم إن وقع شيء من ذلك ربما تفسد السلعة أو يموت أحد من أهل ذلك المركب، فلا يضيع شيء من متاعه بوجود سيدنا نصره الله، ويدفع ذلك للرائس أو لمن له الأمر يأخذ السلعة ويعطى الأجرة لمن يعينهم، وأهل المركب يتوجهون حيث شاءوا ولا يتعرض لهم أحد هـ.

الشرط الثامن والتاسع:

ألا يأتى أحد من أهل طاعة سيدنا نصره الله ولا من طاعة الفلامنك إلى طاعة أخرى ويعمل سنجاقا غير سنجاقه، ويقرضون على من له صلحا معهم من طاعة سيدنا وطاعة الفلامنك، وكذلك أيضا بشرط الذى هو لعمالة أخرى غير الذى هو صلحا معها، وجميع سفن سيدنا نصره الله القرصانية لا تأتى لطاعة الفلمنك ولا تقرص عليها ولا على نواحيها هـ.

الشرط العاشر:

أن جميع من كان عدوا لطاعة سيدنا ويأخذ غنيمة لا يدخل بها طاعة الفلامنك يبيعها ولا غير ذلك، وكذلك من كان عدوا للفلامنك لا يدخل طاعة سيدنا نصره الله يبيع الغنيمة التى يغنمها للفلامنك، وكذلك إن كان بمرسى من طاعة سيدنا مركب من أعداء الفلامنك وكان مركب من مراكب الفلامنك بتلك المرسى السعيدة لا يتعدى عليه أحد، ولا يقربه بسوء، وإن كان مركب من مراكب

الفلامنك على سفر من تلك المرسى فلا يترك مركب العدو يسافر إلا بعد سفر
الفلامنك بأربعين ساعة هـ.

الشرط الحادى عشر:

إذا أخذ الفلامنك سفينة من أعدائه وأعداء سيدنا نصره الله ودخل بها إلى
مرسة من طاعته وأراد بيعها فلا يتعرض له أحد ولا ينازعه، وكلما ينزلوا من
السلعة بخاطرهم فى البر يعطوا ما يلزمها من العشر من غير زيادة، وإن توقفوا
على ما يقضونه من الفرشك بسعر السوق لما يأكلونه فلا يلزمهم عليه خارج بوجود
سيدنا نصره الله هـ.

الشرط الثانى عشر:

إن ورد مركب من قرصان الفلامنك على مراسى طاعة سيدنا نصره الله
فالقونص الفلامنك يعلم به حاكم البلاد ربما يكون عنده أسير فرّ له، وإن دخله
الشك وأن الأسير فرّ إلى المركب فيسأل رانس المركب هل هو هناك أم لا، ورانس
المركب يقبضه له، وإن لم يكن هناك وقال له رانس المركب ما هو شىء عندى فلا
يتعدى أحد على رانس القرصان ولا على القونص ولا على أحد من التجار، وإذا
تحقق الخبر على ذلك الأسير وأنه هرب فى ذلك المركب من غير علم الرانس
وأخفوه عنه البحرية فالقونص يكتب للاصطادوص، ويحكم فى الذى أخفاه ورب
الأسير يقبض مال اليسير هـ.

الشرط الثالث عشر:

من اليوم الذى انعقد هذا الصلح لا يقع أسر على أحد من رعية الفلامنك
لا نصارى ولا أهل الذمة ولا على من يكون تحت سنجاقهم، وإذا اتخذ مركب
بعد ما عقد الصلح فيرجع ولا يطالبون أهله فى فدية ولا فى غيرها هـ.

الشرط الرابع عشر:

إن مات أحد من التجار من رعية الفلامنك وترك سلعة أو متاعا لا يتعدى عليه أحد من عمال سيدنا نصره الله ولا يأخذ من ذلك شيئا إلا إذا أوصى الهالك عليها أحدا، تبقى في يده سواء كان وراثته أو شريكه أو وكيله، فإن كان حاضرا بقت بيده، وإن كان غائبا ولم يحضر أو توفي القونص الفلامنك يأخذ ذلك، ويدفعها لربابه، وإن لم يكن القونص حاضرا فتجار الفلامنك المقيمين في البلاد يحزونها ويبيعونها لأربابها من غير معارض لهم في ذلك بوجود سيدنا نصره الله هـ.

الشرط الخامس عشر:

تجار الفلامنك المقيمين بطاعة سيدنا نصره الله من النصارى الفلامنك أو من أهل الذمة إذا جاءوا بسلعة لا يعطون عشرين منها، وكذلك حاكم البلاد إن كانت بيدها سلعة لا يكلفهم يأخذونها منه كرها إلا عن خاطرهم ورضاهم بذلك، وكذلك رياس المراكب لا يحكم عليهم أحد من حكام البلاد يحملوا سلعة في مراكبهم إلى بلاد أخرى إلا إن رضى بذلك الرئس، كذلك حاكم البلاد لا يتقف سفينة ولا رئس ولا بحرى، وقونص الفلامنك وتجارهم لا يقبضهم أحد في دين أحد إلا إذا كانوا ضامين عليه وكذلك سفينة الفلامنك إذا تعمل زنبوط لا يتخذ فيه لا قونص ولا تاجر، وإنما القونص يكتب للاصطادوص بش يفتشوا عليها هـ.

الشرط السادس عشر:

وكذلك النصارى الفلامنك وأهل الذمة منهم إن وقعت بينهم دعوى أو خصام أو موت أو جرح، فالقونص الفلامنك الذى فى يده تولية الاصطادوص يحكم بينهم هـ.

الشرط السابع عشر:

إن كان المسلم خصم مع نصرانى فحاكم البلاد مع القونص يفاصلهم، وإن وقع أمر من نصارى الفلامنك جرحوا المسلم يرفع أمرهم لسيدنا نصره الله، وهو يحكم فيهم، وإن هرب صاحب الدعوة لا يقبض فيه أحد من تجار الفلامنك ولا القونص هـ.

الشرط الثامن عشر:

أن ديوان الاصطادوص يبعثون قونص واحداً أو أكثر لطاعة سيدنا نصره الله للموضع الذى يريدون والقونص المذكور لا يتعدى عليه أحد فى ماله، ويستوصى به خيراً، وكذلك التجار المقيمين بطاعة سيدنا نصره الله وترجمانتهم وسماسرهم يطلعون للمركب الذى يريدون لطاعة سيدنا نصره الله ولا يتعدى أحد عليهم، وكذلك يسافرون فى البر للموضع الذى يريدون من طاعة سيدنا نصره الله، وكيف يريدون دفن موتاهم لا يتعرض لهم أحد ولا يمنعهم من صلاتهم المعهودة من دينهم والقونصوات والتجار هم الذين ينظرون من يصلح بهم من السماسر والترجمات.

الشرط التاسع عشر:

إن وقع شىء مما يوجب نقضى الحكم بحساب ما يقتضيه رأيه الرشيد، أن يعلموا بواجب ذلك، وأن يؤجلوا القونص الذى بطاعة سيدنا نصره الله أجلا مبلغه ستة أشهر، بينما يجمع القونص ماله الذى يكون مفترقا من دين أو معاملة ويرجع لبلاده هو وجميع من يكون من التجار بطاعة سيدنا نصره الله بأمعتهم وأولادهم وأصحابهم، ولا يتعدى عليهم أحد بوجود سيدنا نصره الله هـ.

الشرط العشرون:

إن كان أحد من جنس الفلامنك راكبا فى مركب أعداء سيدنا نصره الله وظفر بذلك المركب سيدنا نصره الله لا يتعرض أحد لذلك المركب الذى هو من طاعة الفلامنك، سواء كان نصرانيا أو ذميا ولو كان تحت سنجق العدو، ولا يتعرض أحد لسلعته، وكذلك إن كان أحد من طاعة سيدنا نصره الله راكبا فى المراكب الذين هم أعداء للفلامنك وظفر به الفلامنك لم يأخذ أحد شيئا لذلك المراكب الذين هو من طاعة سيدنا نصره الله لا سلعة ولا شيئا من متاعه هـ.

الشرط الحادى والعشرون:

إن تبين على أحد أنه نقض الصلح ويسعى فى المسائل التى تكون سببا فى ذلك وكان نصرانيا يعلمنا به سيدنا نصره الله ويحكم فيه، ويرد كل ما أخذ، وكذلك إن فعل ذلك أحد من طاعة سيدنا نصره الله يحكم فيه ويرد كل ما أخذ، ويكون الأجل فى ذلك ستة أشهر بينما يحصل الخبر ويأتى الجواب هـ.

الشرط الثانى والعشرون:

يجعل سيدنا نصره الله علامته المباركة بموافقة على هذا الصلح، ويجعلوا الاصطادوص علامتهم بخط العجم فى الوقت الذى يساعدوا الهوى والريح، وهذا الصلح مبدوه من يوم الكتب بعقد صحيح، وأن يأمر سيدنا نصره الله حكام طاعته ويعرفهم بأمر الصلح ويبينوه لهم لئلا يتعدى أحد من كونه لا علم له بأمر هذا الصلح المبارك مع جنس الفلامنك، وأن يكون كل أحد على بصيرة فى ذلك، وكذلك يفعلون الاصطادوص فى جميع طاعتهم بوجود سيدنا نصره الله والسلام».

٣٨٩ - عبد الله بن عمر بن هشام الحضرمي الإشبيلي القرطبي المعروف
بعبيد.

حاله: فقيه علامة مقررئ نحوى أديب شاعر، جواله فى البلاد، ولد بقرطبة
ونشأ بها ثم رحل وجال، ولقى الرجال، ثم قصد المغرب وتصدى للإقراء
والتعليم، فأخذ عنه بمراكش ومكناسة، وأقام بتلمسان سبع سنين يقرئ بجامعها،
ثم صدر إلى الأندلس فسكن ألمرية، ثم نزل مرسية وخطب بجامعها وأقرأ القرآن
ثم انتقل منها بعد خمسين وخمسمائة.

مشيخته: أخذ القراءات عن أبى القاسم بن النحاس، وأبى الحسن عون الله
ابن محمد، وأبى جعفر أحمد بن عبد الحق الخزرجى، وأبى بكر بن عياش بن
مخارج لقيه بإشبيلية، وسمع الحديث من أبى محمد بن عتاب، وأخذ العربية
والأدب عن أبى محمد بن متنان، وسمع بالمرية من أبى القاسم بن ورد، وأبى
الحجاج بن يسعون.

مؤلفاته: منها كتاب فى قراءة ورش وقالون، قال القضاعى فى تكميل
الصلة: وقفت عليه، وله كتاب الإيضاح والإفصاح، فى اختصار المصباح، وشرح
مقصورة ابن دريد.

ولادته: ولد بقرطبة لتسع خلون من ربيع الأول سنة تسع وثمانين
وأربعمائة، ولم أقف على تاريخ وفاته.

٣٩٠ - عبد الله بن حماد يعرف بابن زغبوش المكناسى النشأة والدار.

حاله: كان من أهل المعرفة والنباهة، دخل الأندلس، وسكن شاطبة،
وخلف على بنت القاضى أبى عبد الله بن سعادة بعد وفاة محمد بن عاشر الفقيه
سنة سبع وستين وخمسمائة، وولد له منها ابنه محمد قال الحافظ القضاعى فى

تكمّلته: ولا أعلم له - يعنى المترجم - رواية بعض خبره عن ابن سالم. قلت: وعبد الله هذا والده هو محمد بن حماد بن زغبوش، وهو الذى امتحنه يدر بن ولجوط فى سبعة من قرابته، وكان فقيها خيراً قرأ بقرطبة وغيرها، وصحب جلة من أهل زمانه حسبما تقدم فى ترجمته فى المحمدين.

وقد استقضى أمير المؤمنين أبو يعقوب بن عبد المؤمن بن على صاحب الترجمة على مدينة شاطبة وجزيرة شقرون، ومن ذلك الوقت استقر بشرق الأندلس بعض ذريته، ولما أسن رغب فى استيطان بلده فأسعفت رغبته فاستوطن داره بتاورا ولم يدخل قط تاجرات المدينة الآن فيما زعموا أنفة منه لما أصيب به والده وقرابته من المحنة بالذبح التى صدرت لهم من يدر المذكور، وكان إذا أراد لقاء الشيخ محمد بن عبد الله واجاج تلقاه بالبحيرة التى تولى غراستها فى ذلك التاريخ، وكان فى بلده مكرما وجيها يزوره قضاته وطلبته وأعيانه.

وكان - أعنى صاحب الترجمة - بمدينة فاس يقرأ حين نزلها الموحدون وسنه يومئذ خمس وعشرون سنة، فتشوف فى أحد الأيام إلى الإشراف على محلة الموحدين، فخرج من مجلس القراءة وسط النهار وقد انصرف الناس إلى ديارهم والأسوار خالية إلا من حراسها فطلع السور ليطلع منه عليهم، فبينما هو يمشى على السور حدثته نفسه بالهبوط إليهم، فارتاد موضعاً خاليا خفياً عن الحرس وربط عمامته فى إحدى شرافات السور وتقلد خريطة كتبه وتعلق بالعمامة، وكانت ضعيفة فلما ثقلت انقطعت وسقط فى الأرض واعتلت إحدى قدميه، وتسارع إليه الموحدون ورفعوه فى درقة ووضعوه بين يدي عبد المؤمن بن على، وأكرمه الموحدون وأحسنوا إليه، وكتب له عبد المؤمن صكاً بتسويغ ماله ومال أبيه، وأقام معهم يظعن بظعنهم ويقيم بإقامتهم مبرورا لديهم عزيزا عليهم، وكانوا يلحظون من يمت إليهم بسابقة أو هجرة، فلما نزلوا مكناسة ظهر بمحلتهم واتصل ذلك

بالوالى يدر بن ولجوط، وكان ذلك السبب فى قبضه على والده وامتحانه إياه بالذبح فيمن قبض معه من قرابته، وقد مرت الإشارة للقضية فيما أسلفناه.

وفاته: توفى سنة أربع وتسعين وخمسمائة فى سن الثمانين.

٣٩١ - عبد الله بن محمد بن عيسى.

التادلى الأصل، الفاسى الدار، المكناسى الإقبار.

حاله: علامة متفنن، فقيه أديب، شاعر مفلق، حسن الخط جليل القدر، له رسائل وأشعار، مع شجاعة وصرامة عرف بها، تولى قضاء مدينة فاس على عهد أبى يعقوب اللمتونى يوم السبت سادس عشر ذى الحجة سنة تسع وسبعين وخمسمائة، كما تولى قضاء بسطة وغيرها، وكان من أعدل القضاة، واستوطن مكناسة ودخل الأندلس فى آخر الدولة اللمتونية، ولقى أبا بكر بن العربى بإشبيلية، وهم بالسماع منه فصدّه الفقهاء للتباعد الذى كان بينهم، وكان والده أبو عبد الله من حفاظ المذهب المالكى مشاورا بفاس.

مشيخته: روى عن أبى بحر الأسدى، وأبى محمد بن عتاب، وأجازا له وهو آخر من روى عنهما بمغرب العدو، وصحب القاضى أبا الفضل عياضا، ولقى ابن بشكوال فأجاز له ولم يعول إلا على ابن عتاب، وأبى بحر، ولم يعتمد على غيرهما، وبسببهما أخذ الناس عنه كثيراً لانفراده بهما أخيراً، وقيل: إنه صحب أبا بكر بن الصائغ الحكيم بالمرية.

الآخذون عنه: منهم أبو عبد الله بن حوط، وأبو عبد الله الحضرمى، وأبو الحسن بن القطان، وأبو الربيع بن سالم، وأبو الخطاب بن خليل، وأبو عبد الله الأزدى، وأبو الحسن الغافقى فى جماعة. قال ابن خليل: وكتب لى بالإجازة من مراكش.

٣٩١ - من مصادر ترجمته: جذوة الاقتباس ٤٢١/٢.

شعره: من ذلك قوله مخاطبا ابن مضا.

يا غارسا لى ثمار مجد سقيتها العذب من زلالك

أخاف من زهرها سقوطا إن لم يكن سقيها ببالك

ولادته: ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة.

وفاته: توفي بمكناسة مغربا عن وطنه سنة سبع وتسعين وخمسمائة عن سن عالية، وقال ابن فرتون توفي قرب الستمائة وقد اختل عقله من الكبر كما فى الجدوة.

٣٩٢ - عبد الله بن أبى مدين الحاجب العثماني.

نسبة لبنى عثمان من زواوة بجاية من البربر، ونزلوا مصمودة الغرب بجبال وزان منها.

حاله: له مشاركة فى الفقه، وشعر وسط، بيته بيت فقه وكتابه، وثروة وحجابه، استوطن سلفه قصر كتامة، وهو أول من انتقل منهم من القصر المذكور، رحل إلى مدينة مكناسة واستوطنها، وبرز عدلا فى سماط عدولها لمعرفته بالوثائق، وكان يخالط الرؤساء وولاة الأمر، ويقول لأصحابه: لا بد لى أن أخدم السلطان، وأدبر الدول ونستولى على الأمر، فخرج يوما من مكناسة إلى نزهة مع جماعة من الفقهاء أصحابه، فلما أخذوا فى أطراف الحديث قال لهم على قوله: لا بد أن أدبر الدول، فليشته كل واحد منكم ما يريد ويطلبه منى أعطه إياه، فطلب كل واحد منهم ما فى أمله، فطلب الفقيه ابن زغبوش قضاء بلاده مكناسة فمكنه منها لما مكنه الله تعالى من تدبير الدول، وأعطى لبقية أصحابه ما سألوه منه فى النزهة خارج مكناسة قبل اتصاله بالملوك وفاء بالعهد ورعيا لسالف الود:

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم فى المنزل الخشن

ثم ارتحل لمدينة فاس واستوطنها، وتعلق بالحاجب الكاتب صاحب العلامة محمد بن محمد الكنانى حاجب يعقوب بن عبد الحق المرينى ورسوله فى أسفاره وكاتب علامته، فاخصه الحاجب الكنانى لنفسه يعلم أولاده مع أولاده الوزير عمر ابن الوزير السعود بن خرباش الحشمى، فلما علم أولاد الحاجب الكنانى القرآن وكان من أولاده الفقيه العالم الحافظ ذو الوزارتين أبو المكارم منديل بن الحاجب الكنانى، طلب عبد الله بن أبى مدين من الحاجب المذكور أن يدينه من الخدمة بدار السلطان يعقوب بن عبد الحق، فقدمه يكتب علف الخيل وجعل له على ذلك مرتب تلك الخطة وهو ثلاثون دينارا فضية فى كل شهر.

ثم طلب منه بعد ذلك بمدة أن يرقيه، فقدمه يكتب البطائق بحضرة يعقوب ابن عبد الحق فكتبها مدة إلى أن مات الحاجب الكنانى، وولى مكانه أخوه سعيد ابن محمد أبو الطيب، ثم مات أبو الطيب فولى مكانه محمد المدعو حمو بن أبى الطيب، فتخلف وخرج عن خطة الكتابة وأخذ فى الفروسية والصيد وضيع الخدمة السلطانية، ولزم ابن أبى مدين القعود فى مشور السلطان يكتب الصكوك من أول النهار إلى آخره، فشكر له السلطان ذلك ثم زاحم به السلطان حمو الكنانى، وأطلق يديه على العلامة إلى أن عزله عنها وثبت المترجم فيها - وبقي الكنانى إلى أن أدرك على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق وقتل فى خدمته بالقيروان فى عام خمسة وسبعمائة - فامتاز ابن أبى مدين بالعلامة عند يعقوب بعد أن شاركه فيها إدريس المخزومى، ويحيى المليانى، ومحمد العمرانى.

ثم تخلصت له العلامة والحجابه وتدير الدولة مدة دولة يعقوب، ودولة ولده يوسف، ودولة عامر بن عبد الله بن يوسف، ودولة أخيه أبى الربيع سليمان، وأبو الربيع هو الذى قتله.

والسبب أن الحاجب خليفة بن إبراهيم ابن رقاصة اليهودى زاحمه فى حجابة
أبى الربيع، وكان المترجم لا يفصل شيئاً إلا عن إذن خليفة ومشورته، ثم إن
خليفة ابن رقاصة اليهودى افتعل براءة مزورة ونسبها إلى جارية من جوارى
السلطان تعلم فيها المترجم أنها تحبه، وأعطاهما له اليهودى معنونة عند انصرافه إلى
داره، وأمره أن يجعلها فى جيبه، وأن لا يقرأها إلا بعد وصوله لداره ففعل،
فعندما جعلها فى جيبه قال لأبى الربيع خبرها فامتعض أبو الربيع لذلك، وأمر
عنصال قائد النصارى بقتل ابن أبى مدين فقتله عند قبر أبى بكر بن العربى.

ثم فحص أبو الربيع عن الحكاية فوجدها مزورة، وأحضر كاتبها بين يدى
السلطان وأخبره أن اليهودى أمره بكتب الرسالة عن إذن الجارية وذلك من غير أن
يعلم الكاتب أن الجارية لأبى الربيع، وإنما قال له: إنها من أهل الزنى، وأنها تحب
الاجتماع معه، فطلبت من اليهودى أن يكتب لها ذلك الكتاب عن إذنها فطلب
اليهودى منه كتب ذلك، فكتبه خوفاً من سطوته ومكانته عند الأمير، فأمره الأمير
إذ ذاك أن يكتب بيده وهو ينظر ليزداد يقيناً ففعل، وقوبل الخط بالخط والأمير ينظر
فوجد الخط واحداً، وتيقن السلطان اختلاق اليهودى وبهته، فاشتد غيظه عليه
وعظم النكير عليه، وصعب عليه ما فعل، وندم حيث لا ينفع الندم، وأمر بقتل
اليهودى اللعين فقتل من يومه، بعد أن كان هذا اليهودى بلغ فى الحجابة غاية
يقصر عنها الوصف، أورد ترجمته ابن الأحمر فى تأليفه فى بيوتات أهل فاس.

الآخذون عنه: منهم ذو الوزارتين الحافظ أبو المكارم منديل الكنانى.

٣٩٣ - عبد الله بن الحسن اللخمى عرف بابن الأصفر.

حاله: وصفه تلميذه الإمام أبو عبد الله محمد بن جابر الغسانى فى شرحه
على منظومة التلمسانى فى الفرائض: بالشيخ الفقيه الأعدل، وذكر عنه أنه توجه
إلى السلطان أبى العباس المرىنى فى طلب حسبة مكناسة، فعسر عليه أمرها فنظم:

يا باسط الرزق كلَّ السعى والطلب وأنت لو شئت هان الأمر والسبب
لكن رجوتك فى رزق تيسره من حيث لم أحسب أو حيث أحسب
شعره: أنشد أبا عبد الله بن جابر الغسانى لنفسه:

يا من لديه مفاتح الأرزاق وله المشيئة والدوام الباقي
كثر التفاتى للخلائق شاكيا وحقيقة الشكوى إلى الخلاق
فترددى فيما لديك إلى الورى عجز وقد عجزوا على الإطلاق
لكن بسطت رجائى بسط مؤمل متوسل لك باسمك الرزاق
فى عطفة الملك المؤيد أحمد ذى الخلقة الحسنى وذى الأخلاق

٣٩٤ - عبد الله بن حمد - بفتح الحاء والميم من غير ألف - من بيت بنى
حمد، أحد بيوتات فاس الشهيرة.

حاله: فقيه عالم عامل صالح، ولى كامل فالح، متواضع حسن الخلق،
متبرك به حيا وميتا، آية الله فى الزهد والورع والعبادة واتباع السنة، له مناقب
كثيرة، وكرامات ظاهرة شهيرة، ارتحل من فاس للشرق، ولقى خيار المشايخ،
فأشار عليه بعضهم باستيطان مكناسة.

قال العلامة الحافظ سيدى العربى بن يوسف الفاسى فى تقييده فى العقوبة
بالمال: وقد سمعنا مشايخ فاس يحكون عمن قبلهم أن الشيخ العالم الولى سيدى
عبد الله بن حمد دفين خارج مكناسة الزيتون، سار بركب إلى الحج والتزموا
التزاما يأخذونه ممن يغتاب منهم أحداً، فجمعوا من ذلك مالا وافراً واجتازوا
بتونس، فسألوا الشيخ ابن عرفة عن ذلك فأفتاهم بأكله هـ، أى لأن ذلك ليس من

٣٩٤ - من مصادر ترجمته: جذوة الاقتباس ٢/ ٤٢٤، درة الحجال ٣/ ٥٣، الروض الهتون
- ص ١١٤، كفاية المحتاج ١/ ١٧٣، نبيل الابتهاج ١/ ٢٤٧.

باب الإلزام وإنما هو من باب الالتزام، التى يقال فيها ادخلوها بسلام، وفيما جمعه أبو زيد الفاسى من تقرير والده على البخارى بعد كلام: وليس منه ما وقع لأصحاب الشيخ سيدى عبد الله بن حمد حين توجههم إلى المشرق، وأنهم تعاقدوا أن من لم يحضر الجماعة فعليه كذا، ومن اغتاب أحداً فعليه كذا حتى جمعوا من ذلك مالا كثيرا فتوقفوا فيه، فلما مروا بابن عرفة أجاز ذلك لأن هذا بموافقتهم هـ.

وكان المترجم مجاب الدعوة، وكان وزير وقته يعظمه جدا ويقضى له حوائج الناس حتى أفسد بعضهم نية الوزير فيه، فصار لا يقضى له حاجة فيحث عن سببه فذكر له خبر الرجل، فقال الشيخ منجلى فى منجله على كلام العامة ثم قال: اللهم خذه من حيث اطمأن، ثم قدر الله أن ذكر له الوزير شيئا من سر السلطان وخاف أن ينمه عليه فأمر بذبحه فجأة.

ومن مآثره الخالدة التالدة أحباسه الوافرة على الضعفاء والغرباء والمنقطعين وذوى العاهات، التى لا زالت تجرى عليهم من محصولاتها الجرايات مياومة ومسانهة.

وقد ترجم هذا الشيخ الإمام صاحب درة الحجال، وجذوة الاقتباس، والسودانى فى الديباج وكفاية المحتاج، والإمام ابن غازى فى روضه وفهرسته، والحافظ أبو زيد الفاسى فى بيوتات فاس، وغير هؤلاء.

قال أبو زيد الفاسى: إنهم من فريق من البربر وإنهم بيت علم وثروة هـ.
وقال فى الروض الهتون: له بيت حسب بفاس، كان ارتحل منها للمشرق^(١) ولقى الأخيار من المشايخ^(٢) هـ.

(١) فى الروض الهتون: «للمشرق».

(٢) الروض الهتون - ص ١١٤.

ويوجد فى لوح خشب منقوش ملصق بجدار من جدران قبة ضريح صاحب الترجمة ما لفظه بعد البسملة: هذا ضريح العارف بالله الولى الأشهر سيدى ومولائى عبد الله بن حمّد الشريف الحسنى، نفعنا الله به، ثم ذكر سنده الآتى فى مشيخته.

قلت: ولعل معتمد شيخنا أبى عبد الله محمد بن جعفر الكتانى فى سلوته فى الجزم بكون المترجم شريفا حسنيا، هو ما فى ذلك اللوح، وهو ليس بشىء، كيف وقد ترجمة غير واحد من المحققين النسابين ولم يشر واحد منهم لكونه حسنيا، بل وقع التصريح بمن يعتمد ويرجع لقوله بأن بيت بنى حمد الشهير بفاس الذى هو منه بربر، ومن غلط ما فى اللوح المشار له ما صرح به العارف الكامل الشريف المولى عبد القادر العلمى فى بعض أزجاله الملحونة فلا تغتر به، ومعلوم أن كل فن يرجع فيه لأهله، ورب البيت أدرى بما فيه، والشرف لا يثبت شرعا بطريق الكشف.

مشيخته: أخذ عن سيدى على وفا، عن والده سيدى محمد، عن سيدى داود الباخلى، عن سيدى أحمد بن عطاء الله عن أبى العباس المرسى، عن أبى الحسن الشاذلى، عن مولائى عبد السلام بن مشيش، عن سيدى عبد الرحمن المدنى، والشيخ تقى الدين الفقير، عن الشيخ فخر الدين، عن الشيخ شمس الدين محمد، عن الشيخ زين الدين محمد العروسى، عن الشيخ أبى إسحاق إبراهيم البصرى، عن الشيخ أبى القاسم أحمد المروانى، عن الشيخ أبى محمد سعيد، عن الشيخ سعد، عن الشيخ فتح السعود، عن الشيخ سعيد الغزوانى، عن جابر بن عبد الله الصحابى، عن سيدنا ومولانا الحسن، عن جده سيد المرسلين ﷺ، هكذا هذا السند فى اللوح المشار له.

الآخذون عنه: منهم: الإمام القورى، وابن الفتوح دفين روضته المترجم فيما مر، وأبو زيد القرمونى وجماعة.

وفاته: توفى بمكناسة الزيتون سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة على ما فى الجذوة والدرة واللوح المشار له فى جدار ضريحه، وقال الونشريسي فى وفاته: عام واحد وثلاثين هـ، وإلى الرمز لوفاته أشار صاحب الإعلام بلفظ أظلا من قوله.

موت الرضا ابن حمد أظلا به الشجاء علينا فى (أظلا)
وضريحه مزاراة شهيرة مقصودة للتبرك، مجربة لإجابة الدعاء خارج باب البرادعيين أحد أبواب الحضرة المكناسية.

٣٩٥ - عبد الله بن العريف.

حاله: فقيه عالم، عدل رضى، كان مجتهدا فى طلب العلم، ورحل لفاس وأخذ عن الأستاذ أبى زيد الجادري مقصورة شيخه أبى زيد المكودى شارح ألفية ابن مالك فى النحو المتوفى بفاس عام واحد وثمانمائة، وموضوع هذه المقصورة مدح الجنب النبوى، وقد نكت ناظمها فيها على حازم وابن دريد حيث أخليا مقصورتيهما من مدح المصطفى ﷺ، الذى هو كنز كل ربح وغنى، وتحتوى هذه المقصورة على مائتى بيت ثنية وأربع وتسعين بيتا مطلعها:

أرقنى بارق نجد إذ سرى	يومض ما بين فرادى وثنى
أهبنى إذ هب منه موهنا	ما سد ما بين الثريا والثرى
فياله من بارق ذكرنى	من الهوى ما كنت عنه فى غنى
أثار شوقا كان منى كامنا	بين ضلوع طال ما بها ثوى
فكان قلبى المجتوى إذ هاجه	كالزند إذ أوره مور فورى
وسح سحب مقلتى فما بقى	نوع من الدمع بها إلا همى
ما كنت أدري قبل أن أنفدته	أن البكا يمنعنى من البكا

إلى أن قال :

مقصورة لكنها مقصورة على امتداح المصطفى خير الورى
ما شبتها بمدح خلق غيره لرتبة أحظى بها ولا جرى
فاقت علاء كل ذى مقصورة وإن هم نالوا الأيادى واللهى
فحازم قد عد غير حازم وابن دريد لم يفده ما درى
وروى عنه وعن غيره غيرها، وظهرت نجابته، إلا أنه اخترمته المنية فى
صغره كما اتفق لمعاصره أبى الفضل ابن المجراد بمدينة سلا، وكان أمر الله قدرا
مقدورا.

ذكره ابن غازى فى روضه من جملة علماء حاضرتنا المكناسية وفضلائها
قال: ولم أدرك هذا الفاضل، وقد كانت بيننا وبين نجله القاضى الأرمى الأعدل
أبى عبد الله محبة ومؤاخاة، وكان له حسن عهد ما رأيته لغيره رحمه الله هـ.
مشيخته: أخذ عن الإمام المحدث الميقاتى أبى زيد عبد الرحمن بن مخلوف
الجاردى المولود سنة ست أو سبع وسبعين وسبعمائة المتوفى بفاس سنة ثمان عشرة
وثمانائة، وقيل سنة نيف وأربعين، وقيل تسع وثلاثين والله أعلم، وأخذ عن
غيره من شيوخ فاس ومكناس وقد غابت عنى وفاته حال الكتابة.

٣٩٦ - عبد الله بن محمد بن موسى بن محمد بن معطى العبدوسى - بفتح
العين وضمها - الفاسى المكناسى.

قال صاحب التعلل برسوم الإسناد: فهو - أى المترجم - مخضرم فاسى
مكناسى.

٣٩٦ - من مصادر ترجمته: توشيح الديباج - ص ٩٥، الضوء اللامع ٦٧/٥، كفاية المحتاج
١٧٥/١، نظم العقيان - ص ١٢٢، نيل الابتهاج ٢٤٩/١.

حاله: إمام فقيه، عالم صالح، محدث حافظ بارع، كامل المشاركة، شيخ
لجماعة الفقهاء والصوفية، انتفع به خلق في العلمين، وأمات كثيرا من البدع،
وبذل النصح للأمة، وأقام الحدود والحقوق، أكثر علمه فقه الحديث، حفظ
مختصر مسلم للقرطبي في كل خميس خمسة أحاديث، كان أبوه يعطيه عليها
درهما، وكان يشترط العزل في النكاح فراراً من الولد لفساد الزمان، وكان لا
يفارق كمه الشمائل، وكان يعمل الخوص ويعطيه رجلا لا يعرف أنها له يبيعها
ليتقوت بثمانها في رمضان، وكان لا يدخر شيئاً حتى إنه لما توفي لم يوجد عنده
في تركته غير برنس ودراعتين، وحسبوا ما كان يدخل عليه مع ما كان ينفقه
فوجدوه أكثر من مدخوله.

ولى الفتيا بالديار المغربية، وانتهت إليه الرياسة فيها، نقل الوئشريسى في
معياره جملة صالحة من فتاويه، وتولى في آخر أمره خطابة جامع القرويين بفاس،
ومناقبه كثيرة، قال في نيل الابتهاج: جمع فيها بعض أصحابنا تأليفا ذكر فيه
كثيراً. هـ. وكان راسخ القدم، آية في الحفظ، قطبا في السخاء، إماما في نصح
الأمة محبا في الصالحين، معظما آل البيت. قال في الدر النفيس: وكان يعظم
الإمام إدريس بن إدريس ويزوره، وهو الذى أمر بكتب ما على المشهد الذى على
قبره والثناء على شرفه.

مشيخته: أخذ عن والده ومن فى طبقته من فطاحل شيوخ وقته.

الآخذون عنه: منهم ابن آملال، والقورى، وأبو محمد الورياجلى، وخلق.

مؤلفاته: منها الفتاوى المشار لها إلا أنه لم يجمعها فى ديوان، ونظم فى
شهادة السماع.

وفاته: توفى فجأة وهو فى صلاة المغرب فى جمادى الثانية، وقيل ذى

القعدة سنة تسع وأربعين وثمانمائة، ورمز لوفاته صاحب الإعلام بحروف لفظ
خرطم من قوله:

موت الرضا العبدوسى عبد الله فى (خرطم) الممات كل ساه

٣٩٧ - عبد الله بن محمد اليقرنى.

الشهير بالمكناسى - نسبة لمكناسة الزيتون - كما صرح بذلك ابن غازى فى
الروض فى فريق المترجم قائلًا: ولها ينسبون.

حاله: فقيه علامة، فرضى جليل حيسوبى، كان قائما على كتاب الحوفى.

وفاته: توفى بمدينة فاس سنة ست وخمسين وثمانمائة.

٣٩٨ - عبد الله الخياط.

دفين جبل زَرْهُون، الولى الشهير ابن ابراهيم بن عبد الله بن إبراهيم بن
أحمد بن إبراهيم، ينتهى نسبه على ما فى جواهر السماط وغيره، إلى العارف
الشهير سيدى أحمد الرفاعى الشريف الحسنى.

حاله: فقيه علامة، مدرس نفاع، كثير الاتباع للسنة وحضور مجالس العلم
والخض على التعليم، من كبار مشايخ الصوفية المربين الصادقين، الذين نفع الله
بهم، كان له أحوال سنية، وأفعال سنية، وشعائر مرضية، ظاهر الاستقامة على
سنن السلف الصالح وهدْيهم، يدل على الله بحاله ومقاله، أظهر الله على يده
كرامات دالة على صحة ولايته، وصفاء طويته، وتنوير سريرته.

وكانت له زاوية عظيمة لإطعام الطعام لم يكن لأحد مثلها فى عصره، وكان
موثلاً لأهل العلم والدين، وموردا للضعفاء والمساكين، وكان يربى أصحابه كما

٣٩٧ - من مصادر ترجمته: لقط الفرائد فى موسوعة أعلام المغرب ٧٦١/٢.

٣٩٨ - من مصادر ترجمته: دوحة الناشر فى موسوعة أعلام المغرب ٨٥٩/٢.

يربى المعلم الصبيان، ويحضهم على الصلاة فى وقتها، عالى الهمة، ممتع المجالسة، طيب المؤانسة، كامل العقل، سديد الرأى، جميل المعاشرة، ينزل الناس على قدر منازلهم، مراعى للصحة حق المراجعة وأكملها.

دخل مكناسة الزيتون فى سن الاحتلام مع ابن خالته سيدى عمر الخطاب دفين جبل زرهون، وكان يقرأ القرآن معه بها فى مكتب واحد على مؤدب واحد، ثم دخل لفاس، ولقى علماءها، ثم خرج للسياسة فلقى كثيرا من المشايخ، ثم ذهب لزرهون بإذن من شيخه سيدى أحمد المليانى، وطاف البلاد فى مقدمه، فدخل مراکش، ومَرَّ بدكالة، فتادلا، ثم استقر بمكناسة الزيتون، وصحب الشيخ محمد بن عيسى الفهدى المختارى، وكانت بينهما محبة عظيمة، وموالة كبيرة، ثم رحل لجبل زرهون، واشتغل بعبادة ربه، وتجرد لإذيته أهل القليعة من الزاهنة حتى الصبيان منهم، ثم انتقم الله منهم بدعائه عليهم، واشتهر أمره وطار صيته، وأقبل الناس عليه من كل ناحية حتى كان بزايته ما ينيف على الألف من حملة القرآن العزيز، وكانت زايته أهلة بنشر العلم وبثه فى صدور الرجال آناء الليل وأطراف النهار.

ومن كلامه رضى الله عنه: واعلم أنه لا يسمى العارف عارفا وله دعوى، ولا يسمى المحب محبا وله شكوى، ولا يسمى الموحد موحدًا وله اعتراض، ولا يسمى السالك سالكا وله اختيار، ولا يسمى المريد مريدا وله إرادة، من لم يضبط المحسوسات، لا يقدر على ضبط المدسوسات، إذا رأيت السالك لا يفرق فى سلوكه بين الاستقامة والاعوجاج، فكفى بجهله دليلا على الاستدراج. وله كلام عال نفيس فى الطريق، وقد أفردت ترجمته بالتأليف.

ودعى بالخياط لمسحه بيده المباركة على رجل من خدام السيد أحمد المليانى كان يستقى له الماء، فاتفق أن ضربته بقرعة أحدثت فى جسده فتقا فالتأم ذلك الفتق

بمجرد وضع يد المترجم عليه كرامة له رضى الله عنه ، وذلك بإذن من شيخه سيدى أحمد بن يوسف المليانى المذكور ، إذ قال له لما حدث بخديمه ما ذكر خيطها له يا سيدى عبد الله بن إبراهيم الرفاعى : الله يرفع مقامك على جميع الأشياخ الحاضرين ، فدنا منه ، ومسح بيده المحل المصاب ، فقام الرجل من حينه ليس به شىء ، أفاده فى جواهر السماط .

مؤلفاته : منها الفتح المبين ، والدر الثمين . فى فضل الصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وقفت عليه بخزانة وزان عام أربعة وأربعين وثلاثمائة وألف ، فى جزء وسط .

مشيخته : أخذ عن السيد الحسن بن عمر أجانا ، وأحمد بن يوسف المليانى المتوفى فى العشرة الثالثة بعد التسعمائة بمليانة ، وقبره مزاراة شهيرة ثم .

أما الطوائف المبتدعة التى تنسب إليه المعروفة باليوسفية فليسوا على شىء من أحوال الشيخ ، بل هم مارقون من الدين بمعزل عن سبيل المهتدين ، عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

الآخذون عنه : منهم الشيخ الصالح الناصح أبو الطيب بن يحيى الـيـحـياوى دفين ميسور المتوفى فى ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وتسعمائة كما فى مرآة المحاسن ، ومنهم السيد محمد فتحا العائدى دفين خارج باب الفتوح أحد أبواب مدينة فاس المتوفى فى شهر رمضان عام أربعة وثمانين وتسعمائة ، ومنهم أبو عمران موسى بن على ، دفين زرهون وخلق .

ولادته : ولد بقابس سنة تسع وثمانين وثمانمائة .

وفاته : توفى مسموما سنة تسع وثلاثين وتسعمائة ، ودفن بزاويته الشهيرة من جبل زرهون .

٣٩٩ - عبد الله بن إبراهيم بن الجندوز.

ابن عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن محمد فتْحًا بن بهاء الدين بن الحسن بن الفضيل بن عبد الواحد بن محمد فتْحًا بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن علي بن عيسى بن إبراهيم بن محمد فتْحًا بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسن المثلث بن المثنى بن الحسن السبط بن مولانا علي كرم الله وجهه ومولاتنا فاطمة الزهراء البتول رضى الله عن جميعهم.

هكذا وقفت على عمود هذا النسب فى نسخة شجرة نسب والد المترجم عليها تصحيحات جماعة من الأعلام، منهم: القاضى محمد الغرناطى، وأبو وكيل ميمون الفخار، وأبو وكيل ميمون الفخار، وأبو القاسم بن نعيم وبعد الكل ما نصه: الحمد لله حق حمده، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعبد، أعلم بخطوط السادة عام عشرة وألف الإمام العلوى والسلطان الحسنى والجانب العالى بالله مولاي عبد الله بن مولاي زيدان ابن أمير المؤمنين أحمد الذهبى، كان الله له ولوالديه فى الدارين آمين.

حاله: نشأ فى حجر والده بجزولة من سملالة بالسوس الأقصى على ما فى الشجرة المشار لها، وكان من أهل العلم والدين والخير والصلاح والفضل، صرفه الله تعالى فى الجن فكان كل من استجار به ممن به مس الجن يعجل الله شفاؤه فشهر بذلك، وأقبل الناس عليه، وأذعنوا لفضله، وعلموا مكانته عند مولاه، ولا زال ضريحه إلى الآن قرب بنى عمار أحد مداشر جبل زرهون مقصودًا عند العوام والخواص لذلك، وهو مرهم لذلك الداء قاطع.

وبعد وفاة والده رضى الله عنه، وذلك عام أربعة وتسعين وثمانمائة، انتقل إلى محروسة فاس بقصد قراءة العلم، فأقام بها اثنى عشرة سنة، ثم توجه لزواية زَرْهُون بقصد زيارة مولانا إدريس الأكبر رضى الله عنه وأرضاه، فأقام بها أربعة

أشهر وخمسة عشر يوما، ثم ندبه بعض تلاميذه للخروج معهم لمحلهم حيث مدفنه الآن، فلبى دعوتهم واستقر به النوى هنالك، ولم يزل مقيما ثمة، إلى أن نقله الله إليه، ولم يعقب.

وفاته: توفى سنة اثنتين وسبعين وتسعمائة، وضريحه بالمحل المذكور بجبل زَرْهُون من أشهر المزارات المقصودة للزوار، ينسل إليها الناس من كل حذب إلى الحين الحالى.

٤٠٠ - عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبود بن علي بن عبد الرحمن بن أبي العافية المكناسي الشهير بابن القاضي.

حاله: فقيه علامة، يستظهر مختصر خليل والرسالة، والألفية عن ظهر قلب.

مشيخته: أخذ عن أبي بكر السراج المولود سنة إحدى وعشرين وتسعمائة، المتوفى بفاس عام سبع وألف، وعبد الواحد اليعمدي المتوفى سنة ثلاث وألف، وأبي العباس القدومي، وأبي عبد الله بن مجبر المولود سنة ثمان وتسعين - بتقديم المثناة - وثمانمائة، المتوفى في المحرم سنة خمس وثمانين وتسعمائة وغيرهم.

وفاته: توفى بمدينة فاس سنة سبع وثمانين وتسعمائة.

٤٠١ - عبد الله مولى الرئيس الأوحدي أبي عثمان سعيد بن حكم^(١).

صاحب مَيُورَقَة بفتح الميم وضم الياء المثناة تحت وسكون الراء بعدها قاف مفتوحة فتاء.

٤٠٠ - من مصادر ترجمته: لقط الفرائد في موسوعة أعلام المغرب ٩٣٧/٢.

٤٠١ - من مصادر ترجمته: رحلة العبدري - ص ٢٨٠.

(١) تحرف في المطبوع إلى: «حكيم» وصوابه من ملء العيبة ٣٢٩/٢، ورحلة العبدري -

ص ٢٨٠.

حاله: فقيه علامة، راوية محدث، وصفه العبدري في رحلته بالفقه والحديث والاهتمام بالعلم والاعتناء بالرواية، قال: وقد وقفت على فهرسة شيوخه وقد شاركته في بعض شيوخه الذين ذكرهم، قال: وقد كان في أملى الاجتماع به ولم يقض له به هـ^(١).

وقد كان بقيد الحياة سنة ثمان وثمانين، إذ سفر العبدري كان في الخامس والعشرين من ذى القعدة من التاريخ المذكور حسبما أفصح بذلك العبدري في رحلته المنقول عنها.

٤٠٢ - عبد الله بن علي المعروف بالحجام الصبيحي.

دفين جبل زرهون.

حاله: شيخ صالح حسن الأخلاق متحمل أذى الخلق، وكانت له زوجة سيئة الأخلاق تؤذيه جدا، فقال له بعض أصحابه هلا طلقته؟ فقال له: لو فعلت لابتلى بها مسلم غيري.

وله أتباع كثيرون، ونية صالحة، ومعتقد صحيح، وأخلاق حسنة، ودين متين، مقصود للزائر، مزدحم للتسليم عليه، مشهور البركة في الديار المغربية، صاحب كرامات ظاهرة، وأحوال خارقة، من ذلك أن رجلاً جاء لزيارته وهو لا يعرفه فوجده في سفح الجبل فقال له وهو لا يعرفه: أين سيدي عبد الله الحجام؟ فقال له الشيخ: وما حاجتك به؟ قال: جئت أزوره لوجه الله تعالى، فقال له الشيخ: والله لا تطلع إليه إلا محمولا على ظهري حيث كان قصدك زيارته لله تعالى فقط، فحمله على ظهره فلما بلغ به داره وعرفه نفسه وتكلم معه، قال: يا سيدي نريد منك أن تكلم حاكم البلاد في مسألة كذا، فقال له الشيخ: قد خدعتني، والله لتردني على ظهرك إلى الموضع الذي حملتك منه، وكان المترجم

(١) رحلة العبدري - ص ٨٠.

جسيما فحمله إلى ذلك الموضع . قال فى الصفوة بعد إirاده هذه الحكاية : هكذا رأيت الحكاية بخط شيخنا الفقير الصوفى أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن ، ويقال : إن ذلك وقع للزائر مع بعض قرابة الشيخ ، والله أعلم .

مشيخته : أخذ عن سيدى عمر الخطابى دفين جبل زرهون عن التابع .

وفاته : توفى عام واحد بعد الألف ، ودفن على رأس مدشر زاوية مولانا إدريس الأكبر المعروف الآن بخبير من جبل زرهون ، وبنيت عليه قبة ، وضريحه إلى الحين الحالى من أشهر المزارات المقصودة للتبرك بها .

٤٠٣ - عبد الله الجزار .

دفين الحضرة المكناسية .

حاله : سمعت من غير واحد أنه كان من كمال العارفين المتبرك بهم أحياء وأمواتا ، وأن الدعاء بضريحه جربت إجابته مرارا ، قال فى حقه صاحب جواهر السماط ما لفظه : كان رحمه الله ورعا سنيا ، وكان فى ابتداء أمره جزارا ، وكان يتورع فى البيع والشراء ، فلا يشتري الغنم إلا من قوم عرف طيب مكسبهم ، ثم يذبحها فيبيعها بأرجح ميزان ، وما فضل له من الريح يذهب به لزاوية الشيخ الخياط - يعنى شيخه سيدى عبد الله المترجم قبل - فيفرقه على الفقراء ، ثم ترك بيع اللحم ولازم الشيخ الخياط إلى أن كان منه ما كان هـ .

ولم أقف على زائد يتعلق بترجمته غير ما هو منقوش فى الخشب الذى على ضريحه بخط بارع ، أخذت فى مناولته يد البلى نقلته هنا صونا له من الإتيان على باقيه ، وغير ما هو منقوش فى لوح خشب أيضا ملصق بالجدار ثمة ، ودونك لفظ ما هو منقوش فى الخشب الذى على الضريح :

الحمد لله العلى البارى ملك الملوك وفاتح الأسرار

ثم الصلاة على النبى محمد سر الوجود ومنبع الأنوار

وعلى الأفاضل آله وأصحابه
هذا ضريح سامى المقدار من
قف ضارعا متذللا تلق المنى
إن الوقوف ببابهم أصل الغنى
وإذا قصدت لمثل عبد الله ذا
وبشيخه والطائعين لربهم
كم حاجة قضيت لمن قد أمه
(١) كافيا
فعليه منى ألف ألف تحية
(١)
أهل الكمال القادة الأخيار
قد شاع فى الآفاق والأقطار
تكف النوائب تحظ بالأوطار
ما فى وقوفك ساعة من عار
فاقصد وسل مولاك بالجزار
أهل التقى فى حضرة ووقار
والواردين ببحره الزخار
فكاك ماسور من الكفار
كالمسك نسمته مع الأزهار
من هجرة المختار

مشيخته: فى اللوح الخشبى الملصق بالجدار المشار له، أنه أخذ عن الحارثى بن موسى بن خشان (كذا) عن عبد الله موسى بن على مولى آية رأس، عن على بن قاسم الدكالى، عن موسى بن على مولى الصخرة، عن الشيخ الكامل محمد بن عيسى الفهدى المختارى، عن أبى العباس الحارثى، عن سيدى محمد بن سليمان الجزولى، عن سيدى عبد الله أمغار الشريف، عن أبى عثمان سعيد الهرتنانى، عن أبى زيد عبد الرحمن الرجراجى، عن أبى الفضل الهندى، عن عنوس البدوى، عن الإمام القرافى، عن أبى عبد الله المغربى، عن أبى الحسن الشاذلى، عن مولانا عبد السلام بن مشيش، عن أبى زيد عبد الرحمن المدنى، عن تقى الفقير، عن فخر الدين، عن أبى الحسن، عن شمس الدين، عن زين الدين

(١) فى هامش المطبوع: تلاشى أصله.

القزويني، عن إبراهيم البصري، عن أبي القاسم المرواني، عن سعيد، عن سعد، عن فتح السعود، عن سعيد الغزواني، عن جابر، عن سيدنا ومولانا الحسن بن علي رضي الله عنهما وأرضاهما وعنا بهما أمين عن رسول الله ﷺ وشرف وكرم هـ.

وقد أغفل أخذه عن سيدي عبد الله الخياط، وعلى كل حال فقد شارك شيخه في بعض مشيخته وإن أخذ عن تلاميذه وتلاميذهم، بل الله ثرى الجميع بالرحمة والرضوان.

الآخذون عنه: منهم سيدي أحمد حجي كما في فهرسة الشيخ الإمام سيدي جعفر بن إدريس الكتاني المعنونة بإعلام الأئمة الأعلام وأساتيذها، بما لنا من المرويات وأسانيدها.

وفاته: توفى على ما في اللوح المذكور أواخر الحجة سنة إحدى وستين وألف.

٤٠٤ - عبد الله بن السلطان محمد الحاج الدلائي رحمه الله.

حاله: إمام فقيه علامة مدرس، وقور حليم، جواد فياض، سخي كريم، فارس شجاع، بطل مقدم، جميل الوجه والقول، حسن السيرة والفعل، ذو سمت حسن، وحال مستحسن، وفراصة صادقة، ومؤانسة رائقة، ومعاشرة فائقة، من لدن صغره إلى كبره، وحصل من العلوم، ما يكل عنه راقم الرقوم، وله من مكارم الأخلاق، ما به كثيراً من أهل زمانه فاق، وطار صيته في الآفاق.

ولما قلده والده ولاية المغرب ولاه بسلا عاملاً فأقام بها مدة نائباً عنه في الأحكام، وفصل معضلات الخصام، وتصدر للتدريس، وتصدى للقول بالحق والعمل النقيس.

وكان مواخيا له بها ومصاحباً، ومواليها له أيامها ومعه كاتباً، الفقيه الأجل، البركة الأفضل، أبو مروان عبد الملك التجموعى، ثم نقله والده لمكناسة الزيتون وولاه بها مدة، وكان ينوب عنه تارة فى الحروب وتارة فى غيرها من ولايات الأحكام، وكان قد نزل على فاس بأمر والده حين تحالف أهلها مع الدريدى، وخالفوا على والده فحاصرها مدة من الأيام وأقلع عنها.

وخرج فيمن خرج من الزاوية مع والده عند الوقعة العظمى بها عليهم، وسار فيمن سار معهما لتلمسان، وأقام بها إلى أن توفى والده، فذهب للمشرق بقصد حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام.

فلما قضى نسكه وطاف وزار، بقى فى المشرق نحواً من عامين اثنين، وانقلب راجعاً عام خمسة وثمانين وألف فى جملة من أتى معه مسافراً من المشرق، فلما قربوا من الجزائر أُخْبِرُوا بثورة أهل تلمسان على الترك الذين بها، ولما وصلوا للجزائر وجدوا جيوش الترك خارجة منها قاصدة لقتال أهل تلمسان فخرجوا معهم من الجزائر، وأقاموا فى أثناء الطريق، وتأخروا عن القدوم مع المحلة بعد أن أوصى المترجم رئيس المحلة باحترام أولاده الذين بالعباد، وأخبره بخبرهم فأَنعم له بذلك.

وبعد أن هدأت أصوات تلك الفتنة وخمدت نارها وتبين ما آل إليه أمرها، توجه المترجم لتلمسان، فوجد إخوانه أهل الزاوية الذين كانوا بالعباد قد رجعوا لفاس، ولم يبق أحد منهم يراعيه إلا ولده أبو العباس أحمد، فاستقروا بالعباد، بما لهما من الأهل والأولاد، إلى أن لى المترجم داعى مولاه، وانتقل لما اختير له رحمه الله.

مشيخته: أخذ عن والده وجماعة من جلة فحول زاويتهم الدلائية.

الآخذون عنه: منهم ولده أبو العباس أحمد وجماعة.

وفاته: توفى بتلمسان أواخر سنة ستة وثمانين، أو أوائل سبعة وثمانين
وآلف، ودفن بالعباد، ورثاه ولده المذكور بقصيدة طنانة رنانة اشتملت على اثنين
وخمسين بيتا يقول فى أولها:

يسألنى عن موحشى وأسائله	ألا هل فتى مثلى كئيب أراسله
وأشكو له قلبا دهته بلابله	يطارحنى أحزانه وهمومه
ويخمد وجداً ليس تخبو مشاعله	لعل التأسى يعقب القلب سلوة
بباطن أحشاء الحزين دواخله	ويطفى بفيض الدمع حزنا تغلغلته
	ومنها:

فساعد بجفن ليس يرقأ هامله	فيا صاحبي ان كانت لى خير صاحب
وأضحت على رغم خلاء منازلها	على من شجا المجد الصريح مصابه
كما حازه من قبل ذاك أوائله	همام حوى المجد المؤثل يافعا
ولو عاش ما أعياه أمر يحاوله	قضى من طلاب العز أقصى مراده
بموت كريم يخجل السحب نائله	لهفى على موت المكارم والعللا
وهى مذكورة بتمامها فى البدور الضاوية.	

٤٠٥ - عبد الله بن المجذوب القصرى العبدري.

حاله: ولى صالح، دال على الله تعالى ناصح، ذو سر لائح، وبرهان
واضح، متبرك به حيا وميتا، رحل إلى حج بيت الله الحرام، وفاز بنيل البغية
والمرام، وقفت على رسم إراثته بتاريخ رابع جمادى الأولى عام سبعة وتسعين
ومائة وآلف بخطاب الشريف مولاي أحمد بن على الحسنى المترجم فيما مر.

وقبر المترجم من المزارات المكناسية المقصودة للزيارة وحصول بركة الاعتبار، عليه بناء حافل، وبإزائه مسجد تقام فيه الخمس، وأشار لذكره العفيفى الوقاد، فى هداية السائل المطبوع بمصر سنة ست عشرة وثلاثمائة وألف.

وضريح المترجم من أشهر الأضرحة بمكناس بالمحل المعروف بالكدية، لم يتزوج قط، ورثه بعد وفاته شقيقة أبو فارس عبد العزيز، ثم توفى وأحاط بإرثه ولده عبد الله دعى عب الذى من أحفاده الآن، سمى جده عبد العزيز وعبد الواحد، ووالد أخيهما السيد محمد بن سميّه المدعو البنضاضى، وولد أخيهما إدريس، السيد محمد وشقيقة العلمى حسبما ذلك مثبت عندهم بإراثات وظهائر سلطانية، وقع الوقوف عليها، حين منازعة أبناء عمهم لهم فى فتوحات ضريح صنو جدهم المترجم هـ من خط بعض شيوخنا الأثبات.

مشيخته: أخذ عن الشريف مولاي الرضى اليملاحي الوازاني، وأخيه مولاي المكى دفين رباط الفتح المتوفى فى تاسع رمضان سنة إحدى عشرة مائة وخمسين، عن والدهما سيدى محمد، عن والده مولاي عبد الله الشريف، عن سيدى على بن أحمد الأنجوى، عن سيدى عيسى المصباحى.

الآخذون عنه: أخذ عنه أبو العباس أحمد التواتى فى جماعة.

٤٠٦ - عبد الله بن محمد سميّه بن الخياط بن محمد فتحا بن أحمد بن إبراهيم العطار الزرهونى الوربى القليعى منشأ عرف بالخياط.

حاله: علامة مشارك، متفنن نقاد خبير، دراية فهامة، مدرس نفاع، فقيه نوازل، انتهت إليه رئاسة التدريس والنوازل بالزاوية الإدريسية من جبل زَرْهُون، إليه كان المرجع فى كشف عويصات المسائل العلمية هنالك، وكان يخبر عن نفسه أنه كان يحسن أربعاً وعشرين علماً.

ومن فوائده ما وجد بخطه على هوامش أواخر نسخته من شرح شيخه التسولى على التحفة ونصه: عَايَا^(١) كاتبه عبد الله الخياط سمح الله له بفضلته، جملة من أحبته الطلبة وفق الله الكل بمنه، فى مسأله الخنثى يولد له من ظهره ومن بطنه معا، على ما لحافظ المذهب ابن رشد فى مقدماته، وما للشيخ خليل فى توضيحه، وهو ما نقله شيخنا الشارح رحمه الله، بقوله:

أُحاجى ذوى الحجا مفديهم بما لدى شرعنا نصا لذى العلم والحسب
وذاك أمرؤ يعزى له ابنان وهو أب وأم ووزع وأنف بينهما النسب
له إرثه من كل كالعكس ثم لا توارث بين ذين للفقْد للنسب
وأجاب نيابة عنهم بقوله أيضا:

لك الله أيها المفدى لكلنا بأنفسنا والأهل والأم ثم الأب
تعاى بما لنجل رشد وخلصنا بخنثى له الولادتان ولا عجب
فله أبدا ما يشاء للمكه فسبحانه من واهب يا أخوا الأدب

ومعنى قولنا ووزع أن تجعله أبا لهذا الولد وأما للآخر هـ.

مشيخته: أخذ عن الشيخ بدر الدين الحمومى، وأبى الحسن على التسولى وغيرها.

الآخذون عنه: منهم الشريف سيدى الفضل الشيبهى إمام الضريح الإدريسى وخطيبه، والشريف مولاي الحسن بن الشريف العلوى فى جماعة من الأعلام.

وفاته: توفى بالوباء بمدشر موساوة أحد مداشر زرهون، عام خمسة وتسعين ومائتين وألف، ودفن بضريح سيدى عدو خارج الزاوية الإدريسية رحمه الله.

(١) عَايَا فلان: أتى بكلام أو أمر لا يهتدى لوجهه. وصاحبه: ألقى عليه كلاما لا يهتدى لوجهه.

٤٠٧ - عبد الله بن العرفاوى الخيارى المكناسى .

حاله : فقيه أديب ، له مشاركة فى فنون ، مدرس مجود ، شاعر مفلق ، انتدبه بعض الفاسيين لإقراء أبنائه القرآن العظيم ، فأسعف رغبته وانتقل معه لفاس ، وأخذ عن جهابذتها النقاد ، حتى انفتح له باب تحصيل العلوم العقلية والنقلية ، وبرع وتصدر للإفادة فى القرويين وغيرها ، ثم رشح من انتدبه لإقراء أولاده لوظيف بثغر طنجة ، فرحل فى معيته وأقبل على بث العلم ونشره ، وتعاطى خطة الإشهاد ، فكان من المبرزين بطنجة ، لقيته بها عند وجهتى لأداء فريضة الحج عام واحد وثلاثين وثلاثمائة وألف ناشراً للعلم مفيداً ، وطالعا فى سماء النجابة والنزاهة بَدْراً سعيداً ، ولم يزل جميل السيرة ، محمود السريرة ، إلى أن لى دأى مولاه .

مشيخته : أخذ عن السيد فضول السوسى ، والسيد فضول بن عزوز والسيد محمد القصرى ، والسيد محمد بن عبد السلام الطاهرى ، والسيد محمد بن الحسين العرائشى ، والسيد أحمد بن الخياط الزكارى ، والسيد أحمد بن الجيلانى الفيلالى ، والسيد الفاطمى الشرادى ، والشريف مولاي أحمد البلغيشى ، وأبى محمد عبد السلام الهوارى المتوفى سنة ثمانية وعشرين وثلاثمائة وألف ، والحاج محمد فتحا جنون يدعى جنيون مصغرا المتوفى عشية يوم الجمعة ثامن عشر شعبان عام ستة وعشرين وثلاثمائة وألف وغيرهم من الأعلام .

شعره : من ذلك قوله مجيبا صاحبنا الفقيه العلامة الأديب السيد محمد فتحا ابن عبد الكبير بن الحاج السلمى الفاسى :

وافى كتابكم السعيد موشحا	بفرائد المكتوب والنفحات
أبذرت فى قلبى الكئيب حروفه	وسقيتها بفرات ما العطفات
طابت محبته بشمس ودادكم	ولو أنها زرعت بأرض موات

عجل لقطف ثمارها بوصالكم
فعلى محمد الأديب تحية
وقوله مجيبا المذكور أيضا:

قريباً يجود الإله بجم
فناز بعادكم أحقرت
وجسمى بمكناسة قاطن
يحن إلى فاضل ماجد
فيارب جمعاً به فعسى
فمن بوصل بعيد انفصا
عليه صلاة الإله الذى
عنا بكم فى قريب قريب
فؤاد لمحّب الكئيب الكئيب
وقلبى بفاس نحيب نحيب
حبيب نجيّد أريب أريب
ليلا أموت غريباً غريب
ل بجاه النبى الحبيب الحبيب
علينا عتيد رقيب رقيب

وفاته: توفى بطنجة فى شعبان عام تسعة وثلاثين وثلاثمائة وألف.

٤٠٨ - عبيد المدعو المظلوم.

دفين عاصمتنا المكناسية، ولا تعرف له ترجمة فيما أعلم، ويحكى أنه كان
وشى به بعض الجهلة لسلطان وقته فأمر بضرب عنقه، فصار رأسه بعد انفصاله عن
جسده ينادى: عبيد المظلوم، والله أعلم.

٤٠٩ - عبد الحق قاضيها أبو محمد بن سعيد بن محمد المكناسي.

حاله: من أهل المعرفة والحصافة^(١)، قائم على كتاب ابن الحاجب فى

٤٠٩ - من مصادر ترجمته: نفح الطيب ٥ / ٣٥٠.

(١) فى هامش المطبوع: «مصدر حصف ككرم واستحكم عقله فهو حصيف محكم العقل
والحصافة ثخانة العقل وجودة الرأى»

مذهب مالك، ممتاز به فيما دون تلمسان، كما لابن غازى والمقرى فى النفع نقلا
عن نفاضة الجراب لابن الخطيب وتصدر للإقراء والتقييد فما شئت من اضطلاع
ومعرفة واطلاع، وبث العلم ونشره، فأفاد وأجاد، وهو من جملة مشايخ مكناسة
الذين لقيهم ابن الخطيب السلماني.

مشيخته: أخذ عن الأخوين أبى موسى وأبى زيد ابنى الإمام رحمهما الله.

الآخذون عنه: منهم أبو العباس ابن القاضى صاحب جذوة الاقتباس
وناهيك به قال: قرأت عليه الخارمة، على الرسالة الحاكمة، وأذن لى فى تحمله،
وأخذ عنه صاحب نيل الابتهاج كما قال ذلك عن نفسه فى الكتاب المذكور،
ولسان الدين ابن الخطيب كما فى نفح الطيب.

مؤلفاته: منها جزء نبيل على فتوى أبى بكر بن العربى المسماة بالحكمة،
سماه الخارمة.

وفاته: توفى بعد نيف وستين وسبعمئة.

٤١٠ - عبد الحق الزرهونى.

دفين جبل زرهون، وهو المعروف اليوم لديهم بسيدى بوحق شهير الضريح
بحومة خير، من الزاوية الإدريسية والله أعلم.

حاله: شيخ جليل، محب صادق ملهم، ذو فكر ثابت، وشوق إلى الله
دائم، عظيم الإفادة بالهمة والحال، متمكن مخلص، ذو قدم ثابت، ودين متين،
كثير الاتهام لنفسه، من الأولياء الأكابر الصالحين القادة الأمثال، تعرض لذكره أبو
العباس أحمد بن عبد القادر التستاتوى فى يائته التى توسل فيها إلى الله بأهل الله
إذ قال فيها:

وإن جئت عبد الحق فاجنح لبابه بزرهون قد أمسى عن الشر نائيا

وذكر فى شرحه لها أنه معروف بزrhون من الأكابر، وأنه دفن بحمام الحرة من مكناسة الزيتون لفظه.

قلت: الذى فى ممتع الأسماع وهو الأصل الذى اعتمد التستاوى فى نظمه المذكور كما أفصح هو بذلك عن نفسه، أن المترجم وهو عبد الحق الزليجى دفن بجبل زrhون، ومثله فى ابتهاج القلوب فى ترجمة المترجم، وهو الصحيح والله أعلم.

مشيخته: أخذ عن أبى العباس أحمد زروق، وأبى العباس أحمد الحارثى، واختص بالشيخ أبى عبد الله الصغير السهلئ المتوفى سنة ثمان عشرة وتسعمائة، وهو أخذ عن الشيخ الجزولى.

الأخذون عنه: منهم الشيخ عبد الرحمن بن عياد المجذوب.

ولادته: ولد بزrhون فى العشرة الثامنة من القرن التاسع.

وفاته: توفى سنة إحدى وأربعين وتسعمائة، ودفن بجبل زrhون رضى الله عنه، كذا فى ابتهاج القلوب.

٤١١ - عبد الحق أبو محمد السحيمئ.

حاله: قال فى حقه صاحب الدر المنتخب ما نصه: الكاتب الذى حمئ حيد بدور أفكاره، وطار طير البيان من أوكاره، خاتمة أهل الأدب، وسراج من تأدب وتهذب، هـ.

وبالجملئ فقد كان صدر حملة الأقلام، وواسطة عقد البلغاء الأعلام، ناظما ناثرا، محنكا خبيرا ماهرا، إذا نظم سحر الألباب، وإذا نشر أتئ آيات إعجاز وإعجاب.

شعره: من ذلك قوله مادحا مخدومه السلطان الأعظم سيدنا الجد مولانا

إسماعيل:

أمن أرضهم ريح الصبا تتضوع
وفى حيهم ثار الهياج عشية
إذا ارتحلوا ليلا فضوء رماحهم
وبين أسود الغاب بيض أوانس
وعيشك ما أدرى وأين خيامهم
وما أنكرت عيني من الحسن ما رأته
وتحت رماح القوم كل مدجج
إذا نظرت عيني غزالا مبرقعا
وما ضربوا حمر القباب عليهم
وفى البلدة الحمراء شمس منيرة
لها فى سواد القلب أشرف موضع
فلله ما حملت قلبى من الهوى
ألم يأن للحى الذين ترحلوا
سقى الله أرضا حلها نور شمسه
ولا روع الرحمن سرب عقائل
لهن عهد لا تضيع حقوقها
فيا أخت حامى الحى يوم نزالهم
ومن دونهم بدر الأسنه يلمع
فبات زئير الأسد فى الحى يسمع
لهم فيه عن ضوء الكواكب مقنع
وهل فى أسود الغاب للناس مطمع
نساء أم الغزلان فى الخدر رتع
وإن الشموس فى الهودج تسطع
ظلوم غشوم بالدماء مدرع
أشارت ليث فى الحديد مقنع
وفيهم جبان بالنزال يروع
تراقبها عيناى من أين تطلع
وليس لها عند الجوانب موقع
وفيه كناس للظباء ومرتع
رجوع وهل عصر الشبية يرجع
له فى الحشا عندى شفيع مشفع
نوازع آمالى إليهن نزع
ولست أرى عهد الكرام يضيع
ويا بنت من يدرى العفاة وينفع

ودادى محفوظ على عهدته
رعى الله أيام الشباب فإنها
وحى القصور الخضر صوب غمام
قصور بها المنصور يحمى حقائقا
يجهز إسماعيل منها كتائب
فلله منه النفس والحرب ترمى
وما افتر ثغر قبل تقبيل سيفه
وكم ليلة باتت بها الخيل عوما
وما سر منه النفس غير سريرة
ولم تك أوقات الرخا تستفزه
فلله ما ضمت ثياب أبى الفدا
يباشر فى كل الأمور أموره
أعز الإله الدين بآبن نبينه
فيا ابن الألى سارت بمدح جدودهم
ألستم سراة المسلمين وأسرة
إذا أطعموا يوم الوليمة أشبعوا
ألستم شموسا فى الورى ووجودكم
إذا سدتكم الأملاك شرقا ومغربا
وإن كان فيهم للخلافة زينة
بقيت لهذا الدين تعالى مناره

لديكم أم الود الصميم مضيع
مواسم فيها للنفوس تمتع
مباركة تهمل عليها وتهمع
من الدين فيها الخير للخلق أجمع
تكاد قلوب الشرك منها تصدع
بموج المنايا والأسنة شرع
ولله سر فى الخلائق مودع
بحورا من الظلماء والناس هجع
يخب إلى الأعداء فيها ويربع
ولا كان يوما فى الشدائد يضرع
من المجد والتقوى وما هو يصنع
بقلب نقى للمكارم منبع
وما أن يعز الدين الاسميدع
رفاق لها بين السباب مهيع
محبتهم يوم القيامة تنفع
وإن طعنوا يوم الكريهة أوقعوا
أمان لهم من كل ما يتوقع
فما سادهم إلا النبال الموقع
فمنصبكم فيها أجل وأرفع
وقدرك من بين الملوك مرفع

وقوله وقد أمر السلطان المذكور كتابه بوصف قضية حال قصها عليهم،
ومراده اختبار قرائحهم، وذلك أنه كان يوما مع بعض جواريه وقد حملت سيفاً
وسارت أمامه:

حملت سيوف الهند وهي غنيمة	عن حملها بلواحق الأجفان
حسب الفتاة جلالة ومهابة	عز الجمال مهابة السلطان
